مقدمات القصائد

﴿ في شعر ظافر الحداد ﴾

" دراسة موضوعية فنية "

الدكتوره

وفـــاء إسماعيل الـــبردان

المدرس بقسم الأدب والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

مقدمة القصيدة هى أول شئ يطالع المتلقي، فإذا كانت جيدة المعاني، جميلة المباني، لقيت قبولا وارتياحا .

من أجل ذلك اهتم الشعراء ببدء قصائدهم، وبدت بعض هذه المقدمات كمعارض فنية يعبر فيها الشعراء عن خواطرهم وأحاسيسهم والمقدمة هى تقليد فنى تعارف عليه الشعراء منذ الجاهلية، وألفه جمهور الممذوحين والسامعين، وأولاها النقاد، والذواقون عناية خاصة،وهناك دراسات متنوعة عن مقدمات القصائد فى مختلف العصور .

إلا إنني لم أجد من تطرق بالحديث والدراسة عن مقدمات قصائد شعراء العصر الفاطمي، ذلك العصر الذى اعتبره البعض عصر تخلف وانحدار .

لذا آثرت أن أتطرق بالبحث والتنقيب عن ثقافة هذا العصر الذى ظُلم، فوجدت صفحات أدبية زاخرة، واهتماما بالشعر والشعراء اهتماما فاق الولاة والحكام فى عهد الطولونيين والإخشيديين وخاصة فى القرنين الرابع والخامس الهجري، ووجدت فى صدر هذه الصفحات الأدبية صورة بارزة لشاعر مَثلَ عصره خَيْرَ تمثيل حتى فاق شعراء عصره، وعُدَّ أعظمهم منزلة.

وكان هذا الشاعر هو ظافر الحداد، العامل السكندري، الذى طرح عنه أدران حرفته، واتخذ له صناعة أخرى، وثابر على تزويد نفسه بكل ما تحتاج إليه هذه الصناعة الجديدة من أدوات، وحين استكمل أدواته جمع بين ثيابه روحاً صافية، وذوقاً مرهفاً، وشعورا دافقاً، وأُذنا موسيقية، وعقلا واعيا، فاستطاع أن يقدم لنا من الشعر أرقه لفظاً، وأعذبه عبارة، وأحلاه نغمة، حتى عُد من كبار شعراء عصره وقد وجدتُ فى شعر ظافر الحداد قصائد طويلة، وقصيرة، ومقطوعات شعرية كثيرة، جُمعتْ فى ديوان شعري مشهور، وأكثر مالفت نظرى إليه هو " مقدمات قصائده " التى جعلها استهلالا لموضوعات

وأغراض شعرية عديدة، والتى بدت كأنها لوحات فنية تجذب الأنظار وتسترعى الانتباه .

وتعجبت من مقدرة ظافر فى مقدماته، فقد عَمَل على استجلاب المعانى الوجدانية، وعبر تعبيراً دقيقاً عن المشاعر، ووفق فى إظهار الجانب الذاتى فى شعره فى صورة تلفت النظر .

لذا آثرت الوقوف على دراسة مقدمات قصائده دراسة علمية منهجية .

والبحث مقسم إلى محورين، يسبقهما دراسة تمهيدية عن حياة الشاعر من نسبه ومولده، ونشأته وحياته وثقافته، وعصره وصلته بمعاصريه، وأخلاقه وطباعه، وشعره .

المحـــور الأول :-

مقدمات القصائد فى شعر ظافر الحداد " دراسة موضوعية ".

المحور الثانى :-

مقدمات القصائد فى شعر ظافر الحداد " دراسة فنية " .

والله أسأل أن ينفع به قراء العربية ومحبي أدبها .

نسبه ومولده:-

هو أبو منصور ظافر بن عبد الله بن خلف بن عبد الغنى الجذامى الإسكندرى، المعروف بالحداد وقد سماه أبوه " ظافراً " تفاؤلا بالظفر والنجاح أما " الحداد " فهو لقب، لقب به لأنه كان يمتهن مهنة الحدادة التى ورثها عن أبيه (١).

اختلف المؤرخون فى سنة ولادته، ولكن أكثر الآراء أجمعت على ولادته فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى، أىّ فى عهد الخليفة " المستنصر الفاطمى " (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ).

وينتمى " ظافر " إلى قبيلة " جذام " وكان بينها وبين قبيلة لخم صلة ومودة فإذا أرخت لإحداهما، كان لزاما أن تؤرخ للأخرى.

وكانت مدينة الإسكندرية مسرحاً لكثير من أحداث تاريخ القبيلتين، فقد كانتا من القبائل التى شاركت فى فتحها، ولقد توافد اللخميون والجذاميون على الإسكندرية أفراداً وجماعات فى تواريخ غير مدونة، حتى صاروا فى أواخر القرن الثانى أعز العرب فيها، واستولوا عليها فى ثورة " عبد العزيز بن الوزير الجروى " سنة ٢٠٠ هـ – فصارت خالصة لهم.

وكان أبو القاسم بن منصور بن عبد الله بن خلف بن عبد الغنى، يعيش فى إحدى حوارى الظاهرية من ضواحى الإسكندرية.

نشأته وحياته:-

نشأ ظافر فى مدينة الإسكندرية وسط عائلة كبيرة مكونة من عدد كبير من الأبناء، وكان ظافر واحدا منهم، ولكنه مختلف عنهم. كان مشغوفاً بالأدب، محباً لسماع الشعر، حاضراً لمجالس الشعراء، وندوات الأدباء.

---

(١) معجم الأدباء ١١/ ٢٩، وتاريخ الأدب العربى –عمر فروخ ٢٧٠/٣، والشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث – د. محمد أحمد سلامه – صـ ٢٠٦ – ط ١٩٨٠ م والأدب فى العصر الفاطمى – د. محمد زغلول سلام – صـ١١.

وكانت مدينة الإسكندرية أيام ظافر – رابعة الولايات المصرية من الناحية الإدارية فقد كانت مصر تنقسم بعد القاهرة والفسطاط – إلى أربع ولايات.

أُولاها " القوصية " وهى أكبر الولايات حيث تضم الصعيد كله، ثانيتها " الشرقية " ثالثتها الغربية، ورابعتها الإسكندرية وتشمل البحيرة أيضاً (١).

وعرفت مدينة الإسكندرية بكثرة مساجدها، ومدارسها، وإن دل هذا على شئ، فإنما يدل على انتشار التعليم فيها، وتوافد العلماء عليها، وازدهار الثقافة بجميع أنواعها بين ربوعها وهذا ما ذكره ابن جبير عنها عندما زارها فهو يعطينا صورة دقيقة عن أحوالها إذ يقول:-

" ومن مناقب هذا البلد ومفاخره، المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه، ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد أن يتعلمه وإجراء يقوم به فى جميع أحواله، وهو أكثر بلاد الله مساجد، حتى أن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقل، فالمكثر ينتهى فى تقديره إلى اثنى عشر ألف مسجد، والمقل ما دون ذلك " (٢).

ومن أشهر علماء اللغة فى الإسكندرية، أبو عبد الله محمد بن أحمد الرازى المعروف بابن الخطاب، وأبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز، وأبو الحسن القيروانى الحسن بن عبد الله، وأبو حسن يحيى اللخمى قاضى الإسكندرية، وهو من المشتغلين بالدراسات الدينية.

ومن أشهر الشعراء من أبنائها الوافدين عليها:

على بن عباد، ومحمود بن ناصر وأبو عبد الله ابن الخنشى، وأبوطاهر إسماعيل بن محمد الذى عُرف (بابن المكنسة)، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت الأندلسى " (٣).

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية – حسن إبراهيم حسن – صـ ٢٨٩ – ط. مطبعة مصر١٩٥٨ م.

(٢) رحلة ابن جبير – صـ ١٠ – ط. دار مصر للطباعة.

(٣) مقدمة فى ديوان ظافر الحداد – تحقيق د/حسين نصّار – صـ ١٦.

وقد نشأ ظافر وسط هذه الكوكبة من العلماء، والأدباء، يتتبع أخبار الأدب، ويتحرى مجالس الشعراء، فيستمع منهم، ويتبسط معه بعضهم ويستمع له، وينقده مقوما، ويصده نافرا أن يجتمع " الشعر والحدادة " فى " رجل "، وأبيا أن يضم الشاعر والحداد مجلس.

ولم يكن ظافر الشاب الذى تثبط همته سخرية الساخرين، أو صدود الصادين.. فكان بعيد الهمة، طموح النفس وهو القائل:-

ولى همة تبغى النجوم وحالة تصحف ما تبغيه، فهى لها ضد
إذا رفعتنى تلك تخفض هذه فكل تناهى فى إرادته الجد
فما حال شخص بين هاو وصاعد وليس له عن واحد منهما بد
توالتنى الأرزاء حتى كأنما فؤادى لكفى كل لاطمة خَدُّ

ولم يستقر المقام لظافر فى الإسكندرية، البلدة التى نشأ فيها، فكان طموحه أكبر، فأراد أن يسافر إلى الفسطاط حيث الشهرة وتحقيق الآمال، ولم يذهب ظافر وحده إلى الفسطاط، بل كان معه صديقة أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى، فقد خرجا معا إلى الأهرام، وراعهما ما رأياه منها، فأنشد ظافر هذه الأبيات دهشة وإعجاباً :

تأمل هيئة الهرمين وانظر وبينهما أبو الهول العجيب
كعمارتين على رحيل بمحبوبين بينهما رقيب
وماء النيل تحتهما دموع وصوت الريح عندهما نحيب (١)

ولم يستقر ظافر فى الفسطاط ويتخذها مقاماً له منذ رحلته الأولى، وإنما بقي فيها مدة ثم عاد إلى الإسكندرية، ولقد عانى ظافر فى الفسطاط وصور هذه المعاناه فى قوله:

---

(١) فى مقدمة ظافر الحداد صـ٢٠ .

يـا سـاكنى مصـر أمـا مـن رحمـة لمتـــيم ذهـــب الغـــرام بلبـــه ؟

أمـن المـروءة أن يـزور بلادكـم مثلـى، ويرجـع معـدما مـن قلبـه؟

وظل الحال بظافر متنقلاً بين الإسكندرية والفسطاط، حتى وجد أنه لا يستطيع أن يقضى عمره كله فى السفر حتى استقر به المقام فى " الفسطاط " وخاصة بعد سفر صديقه: أبو الصلت الأندلسى وكان سفره فى عام ٥٠٦ هـ، وتغنى بعودته إلى الفسطاط وقال معبراً عن حنيفة بالعودة:-

أحن إلى الفسطاط ما لم أكن به حنـين طلـيح الركـب بعـد ذهابـه

وتهفـو بقلبـى زفـرة لـو تلبسـت بصـم الصـفا لأنـت متـون صـلابه

وأســمو لروضـــى النـــيم لعلنـــى أصـــادف منـــه نفحـــة مـــن ترابـــه

وأسـتقبل الركبـان مـن كـل وجهـة لعـل بمصـر ذاكـرا فـى خطابـه (١)

ثقافته وتعليمه:-

لم تذكر المصادر شيئاً عن تعليم ظافر، فلم يدخل مدرسة ولا التحق بالأزهر الشريف فى القاهرة التى كان بعيداً عنها فى الثغر أيام شبابه ولكنه كان عصامياً علم نفسه بنفسه، فكان يقف فى دكانه المتواضع الذى يعبق بالدخان المنبعث من الكير المتقد، يضرب بمطرقته تارة، ويسارع إلى الورقة والقلم تارة أخرى ليسجل خاطرة شعرية أوحى به منظر عابر، أو هتفت بها فى أعماقه حالة من حالات النفس الشاعرة، ويقول ظافر فى مقامته:

(١) مقدمة فى ظافر – تحقيق د. حسين نصار – صـ ٢١.

" أصبحت ذات يوم فى منزلى وقد كل جنانى وبنانى، ولسانى وأنسانى فى الدأب فى الطلب، والإكباب على الكتب، ومتابعة المراجعة فى النسخ والمطالعة، بين معنى أحكمه أو لفظ أنظمه، أو خط أرقمه"(١).

وكان ظافر ذا عزم راسخ، وسعى دائب، وجد صارم فى تحصيله للعلم ومعرفته للشعر إذ يقول:-

سأتبع عزمى حيث أم، وأنتحى وجوه المنايا فى ظهور المخاوف

عسى عزة تنجى من الذل أو غنى من الفقر، أو ألقى الردى غير آسف

وقد آتى هذا الإصرار من ظافر ثمرته، بعد أن " شهدت الأحداث على سرعة بديهته، وصلاحية شعره المرتجل لظرفه، وما يتحلى به من دلائل الجودة فأخذت مجالس الإسكندرية الأدبية تغض النظر عن صناعته وتفسح له مكانا بين روادها، وتطلبه حين يغيب (٢).

وصارت لظافر مكانة أدبية بين شعراء عصره، فأخذ اسمه فى الذبوع، وشعره فى الانتشار وشخصه فى الدخول إلى القصور، فاتصل بالكبراء، و الأعيان فى بلدته، ومن وفد عليها من كبراء البلدان الأخرى.

۞۞۞

عصره:-

عاصر ظافر أربعة خلفاء: المستنصر بالله أبا تميم بن معد بن على (٤٢٧ – ٤٨٧) – وابنه المستعلى بالله أبا القاسم أحمد (٤٨٧ – ٤٩٥) وابنه الآمر بأحكام الله أبا على منصور (٤٩٥ – ٥٢٤)، والحافظ لدين الله أبا لميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر (٥٢٤ – ٥٤٤).

ونلاحظ تولى أربعة خلفاء على منصب الخلافة الفاطمية فى هذه الفترة المتقاربة إنما يدل على توتر الحياة السياسية وعدم استقرارها على الرغم من

---

(١) نفس المرجع – صـ ٢٢ .

(٢) مقدمة فى ديوان طافر – صـ ١٧.

فرض سيطرة الفاطميين على مصر قرابة قرنين من الزمن، امتدت من القرن الثالث حتى القرن الخامس، وكان الخليفة الفاطمى " المعز لدين الله " هو أول من فتح مصر بعد محاولات كثيرة من آبائه وأجداده السابقين الذى فشلوا فى فتحها وقد وضع المعز لمصر سياسة " تجمع بين الإغراء بالمال، والإصلاح بالحسنى، والحزم الذى لا تهاون معه وقت الضرورة، تلك السياسة التى عرفت (بسيف المعز وذهبه) فمن لا يصلحه السيف أصلحه المال والعكس صحيح، وسارت تلك السياسة خلفة من أبنائه وأحفاده " (١).

وقد أقام المعز دولة الفاطميين فى مصر وجعل عاصمته " القاهرة "، وتولى الخلافة من بعده العديد من الخلفاء الفاطميين، إلى أن تولاها " المستنصر بالله أبو تميم معز بن ظاهر، وهو أول خليفة عاصره " ظافر "، وقد جاء من بعده ابنه المستعلى، ولم يكن ظافر على صلة بهما، وإنما كان على صلة وثيقة " بالآمر " والذى مثل بين يديه لينشده أول قصيدة قائلاً:-

هذا الإمام امامى حاضر بادى فاليوم اشرف أيامى وأعيادى

هذا مقام سما عن كل مرتبة تسمو لها فى المعالى نفس مرتاد

وكان الناس فى أول خلافة الآمر ينعمون بالأمن والأمان، ولكن ساءت الأحوال فى أخريات حكمه.

وقتل الآمر وتولى الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد نائباً لمدة عامين، تولى بعدهما الخلافة بصورة رسمية أصلية، بعد أن كان يتولاها بالنيابة ووزر الحافظ أجمد بن الأفضل بن بدر الجمالى، فاستبد بالأمر دون الخليفة، وحجر عليه وألزمه بخزانة فى القصر، لا يدخل عيه أحد إلا من يريده، وبقى الحافظ اسما لا معنى تحته ".

---

(١) الأدب فى العصر الفاطمى " الكتابة والكتاب " – د. محمد زغلول سلام – صـ ٢٧ – وتاريخ وآثار مصر الإسلامية: د. عبد الحميد يونس وآخرون– صـ ٦٤٢، ٦٤٣ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ولقد اتصل " ظافر " بالخليفة الحافظ فترة زمنية قصيرة هنأه بالخلافة قائلاً:-

إن الخلافة لم تزل عن أصلها بل أصبحت فى ملك ناظم شملها

صارت إلى من لو حواها غيره ما كان مضطلعا بأيسر ثقلها

وكانت البلاد تئن آلاماً وأوجاعاً فى عهد الخليفة " الحافظ " حتى بعد أن رجعت إليه زمام السلطة التنفيذية للبلاد، وأعقب ذلك تدهور لحالة البلاد، واضمحلال فى قوتها العسكرية، وفقدان العديد من أملاكها.

وانتهى الحال بسيطرة الأعداء على الفاطميين، وتقويض الخلافة الفاطمية وحكمهم للبلاد، ودخل الأيوبيون البلاد – وحكموها سنة ٥٦٧ هـ.

.. لقد عاش شاعرنا تحت وطئة الحياة لسياسية للبلاد فترة متقلبة اعتراها ضعف، وقوة، ونصر، وهزيمة، وغنى وفقر، فلم يستقر الحال على وتيرة واحدة.

وظل الوضع مضطرب فى البلاد طيلة حكم الفاطميين لها، وقد أثر هذا الوضع على **الحياة الاجتماعية** .

ويقول ابن الأثير مصورا حال الناس: –

" كان بمصر غلاء شديد فكان يموت فى اليوم ألف نفس، ثم عَمَّ ذلك سائر البلاد من الشام، والجزيرة والموصل، والحجاز وغيرها " (١).

وقد عانى شاعرنا وطئة هذا الغلاء، وخاصة مع كثرة أولاده، ونجده يشكو ضآلة راتبه الذى أقره له أبى عبد الله لمأمون ويطالبه بالزيادة:-

مولاى قد أوليت عبدك نعمة فلله عليك بها ثناء سرمد

والآن قد أضحت حواشى حاله هديا فلا ترقى ولا هى تصعد

وتكاثر الأطفال فاق تجلدى لكننى كم قدر ما أتجلد

(١) الكامل فى التاريخ – لابن الأثير جـ٨ – صـ ٢٣٥ .

.. وعلى الرغم من اضطراب الحال، وعدم الاستقرار الذى عم على البلاد والمعاناه التى عاشها الناس من فقر، وجوع وغلاء، إلا إننا وجدنا ازدهاراً ثقافيا ممتزجاً برواج علمى ظهر فى كثير من العلوم والفنون والآداب.

.. لقد **ازدهرت الحياة الثقافية** ازدهارا ملحوظا، رغم الضعف الذى كان يعتور الأمور السياسية فى القرنين الرابع والخامس، حين غلب الأعاجم والأتراك على أمور الدولة، لأنهم اعتنقوا الإسلام، وتعلموا لغته، وظلت الحركة العلمية قوية ونشيطة " [١].

يقول محمد كامل حسين:-

" الحياة العلمية كانت مزدهة فى مصر الفاطمية، وعن مصر أخذ كثير من العلماء فى الغرب والشرق " [٢].

وكما كان هناك ازدهار ثقافى يشمل كافة العلوم والفنون والآداب، كان هناك أيضا ازدهار فى " الشعر " بشكل ملحوظ وهذا يرجع إلى: اهتمام الدولة الفاطمية خلال فترة الحكم بالشعر والشعراء اهتماماً فاق كل حدّ، حتى بلغ من عناية الدولة بالشعراء أنها حصرت أسماءهم فى ثبت خاص، ورتبتهم على أقدارهم فى الشعر كترتيب الزوار فى السلك السياسى، وجعلت لهم فى إنشاد الشعر نظاما معينا يتعاقبون عليه، ولا يخرجون عنه فى المناسبات التى ينشد فيها الشعر كالمواسم والأعياد.

❁ رتبت الدولة للشعراء ديوانا جعلوا عليه قيماً، وكان الوزراء والقادة يعتبرون شعر المديح ضربا من الخدمة التى يتقدم بها الشعراء لساحتهم... ومن أكثر الوزراء الذين أجزلوا العطايا للشعراء هو "الأفضل"[٣] .

---

(١) مطالعات الشعر المملوكى والعثمانى – د. بكرى شيخ أمين – صـ ٥٧ – ط دار العلم للملايين.

(٢) فى أدب مصر الفاطمية – محمد كامل حسين – صـ ١٤٩ – ط: وزارة الثقافة المصرية.

(٣) انظر تاريخ الإسكندرية وحضارتها – د . سيد عبد العزيز صـ ٥٥ .

ولم يترك الشعراء فناً من فنون الشعر إلا وقد نظموا فيه.

وقد ظهرت طائفة من الشعراء، كانت طائفة شعبية خالصة، شعبية فى حياتها المتواضعة، وشعبية فى لغة أشعارها، فنشأت صلة وثيقة ربطت بين الشعر والشعب، وكان أغلب شعراء هذه الطائفة أميين مثل (الخباز البلدى " الموصلى، إذ كان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب) .

ويقول صاحب اليتيمة: لا تخلو متطوعة له من معنى حسن أو مثل سائر.

وعلى هذا النحو وجدنا الشعر عاماً للشعب بجميع أفراده وطبقاته، من أميين وغير أميين، ومن أصحاب حرف وغير حرف، فلم يكن هناك حائل أو حاجز يضع أحد عن قول الشعر إذا أراد.

ويقول الدكتور شوقى ضيف: " الثقافة بالشعر لم يكن دونها أسوار تحول أىّ فرد من أفراد الشعب، وبين إحسانه للشعر، ولو كان أمياً، لا يعرف القراءة والكتابة " [١].

وكان ظافر واحداً من هؤلاء الشعراء أصحب الحرف، فكان حداداً ولكن كان شاعراً، محباً للشعر، ويمكننا القول بأن مهنة الحدادة كانت مجالاً خصباً لخصوبة شعره، وهذا ما أوضحه الأستاذ عبد العليم القبانى فى قوله:- " إن شاعرنا كانت تستهويه أدوات صناعته، فيجد فيها المجال الخصيب لشاعريته المتفتحة تطوف بها، وتستخرج منها كثيرا من الصور الأخاذة التى كان قد كلف بإبرازها... فقد تأنق ظافر فى وصف الكانون إذ قال:-

كأن سواد الفجم من فوق جمرة وقد جمعا فاستحسن الضد بالضد
غدائر خود فرقتها وقد غدت على حفر من تحتها جمرة الخد [٢]

(١) الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور – د. شوقى ضيف – صـ ١٥٥ ط – الطبعة الثانية – دار المعارف.

(٢) مع الشعراء أصحاب الحرف – عبد العليم القبانى صـ٢٧ .

إذن كانت مهنة ظافر رافدا خصيباً لشعره، ومجالاً غنياً يستقى منه صوره الشعرية، فبرع شاعرنا فى شعره ؛ حتى ذاع صيته وسط شعراء عصره، وحفلت به المجالس الأدبية، وقربه إليه كبار رجال الدولة من الخلفاء، والقواد، والوزراء، والقضاة، فوثق علاقته بهم، وكانت تجمعهم به صلة قوية، وكان مغزى هذه الصلة أنهم اتخذوه شاعرا لهم يمدحهم، ويذكر محاسنهم، ويتغنى بصفاتهم فى شعره، أما هو فاتخذهم أسبابا لاستقراره فى " الفسطاط " يعززون هذا الاستقرار بمناصبهم ومكانتهم فى المجتمع.

۞۞۞

صلته بمعاصريه:-

.. كان لظافر عدة صلات بكبار رجال الدولة ممن عاصرهم وعاصروه، ومن أكثر هذه الصلات (صلته بالقضاة)..

وكان منصب القاضى من أهم المناصب فى الدولة الإسلامية، وفى العصر الفاطمى كانوا ينصبون قاضيا لقضاة الدولة كلها، يقيم فى الفسطاط. أو القاهرة، ومن هؤلاء القضاة الذين اتصل بهم " ظافر " (ابن أبى عقيل).. فقد تولى القضاء فى مصر سنة ٥٣١ هـ، وتوفى سنة ٥٣٣ هـ، وكان من المحبين للأدب المعاشرين للأدباء، المترددين على مجالسهم، وقد تم اللقاء بنيه وبين ظافر فى أحد هذه المجالس الأدبية، فتوثقت الصلات بينهما، وقد ترنم ظافر ببعض الأبيات الشعرية قائلاً فيه:-

وعشية أهدت لعينك منظرا قدم السرور به لقلبك وافسدا

روض كمخضر للعذار، وجدول نقشت عليه يد النسيم مباردا

والنخل كالهيف الحسان تزينت فلبسن من أثمارهن قلائدا

والقاضى الثانى الذى اتصل به ظافر ووثق صلته به هو: (ابن حديد) الذى تولى القضاء فى ظل أوضاع سيئة، حيث اجتاحت هزة فى البلاد أدت

إلى انقسام اتباع المذهب الفاطمى إلى فرقتين متنافرتين، وكان هذا القاضى ذا مروءة عظيمة وجود واسع، جعل الشعراء يلتفون حوله، ويتقربون إليه بالمدائح وعلى رأسهم ظافر إذ يقول:

شهر الصيام بك المهنا إذ كان يشبه منك فنا

ما سار حولا كاملا إلا ليسرق منك معنى

وينال منك كما تنا ل، ويستفيد كما استفدنا

فرأى محلك من محا ل هلاله أعلى وأسنى

بهرت محاسنك الورى فأعادت الفصحاء لكنا

فإذا مدحناك احتقر نا ما نقول وإن أجدنا

وكما كان لظافر صلة وثيقة بقضاة الدولة، كانت له صلة (بالأمراء والقواد) ومن هؤلاء الولاة لأمير السعيد بن ظفر من ولاة الإسكندرية، الذى خلصه ظافر من ضيق خاتمه وأنشده قائلاً:-

قصرَّ فى أوصافك العالم وأكثر النا ثر والنا ظم

من يكن البحر له راحة يضيق عن خنصره الخاتم

فأعجب به الأمير واستحسن شعره، ووهبه الحلقة، وكانت من ذهب، وكان بين يدى الأمير غزال مستأنس، قد ربض وجعل رأسه فى حجره، فقال ظافر:-

عجبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخطى له واعتمد

وأعجب به إذ أتى جاثما فكيف اطمأن وأنت الأسد

فـزاد الأميـر والحاضـرون استحسـانا، وتأمـل ظـافر شـباكا علـى بـاب المجلس تمنع الطير من دخوله، فقال:-

رأيــت ببابــك هــذا المنيــف شــباكاً فــداخلنى بعــض شــك

وفكــرت فيمــا رأى خــاطرى فقلــت: البحــار مكــان الشــبك

وقد أعجب الأمير بشعر ظافر، واستمرت الصلة بينهما، ومدحه ظافر فى قصيدة مطلعها:-

لو كان هجرك يبقينى إلى أمد لما عدمت اصطبارى عنك أو جلدى

ولم تقتصر صلة ظافر على الولاة، بل تعداهم إلى (القواد)، بل إنّ ذلك ليس تعديا لأن الولاة أنفسهم كانوا من القواد، لأن العنصر العسكرى كان الغالب على الخلافة الفاطمية، منذ تولى الأمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة " [1].

.. وقد اتصل ظافر بأبى البركات محمد بن محمد بن صالح بن عثمان، وتوطدت صلتهما حتى إن ظافر كان يخرج معه للتنزه فى الفسطاط وضواحيها البعيدة وقال فيه شعراً كثيرا منه:-

لله أيــــامى بقليــــوب والعــيش مخضــر الجلابيــب

والطيــر فــى الأغصــان فتانــة مــا بــين تلحــين وتطريــب

والشـمس فـى المغـرب مصـفرة كعاشــق مــن بعــد محبــوب

وجلنــــار بــــين أغصــــانه يبــــدى أفــــانين الأعاجيــــب

كزعفــــران لاح فــــى لاذه حمــراء فــى راحــة مخضــوب

(١) مقدمة فى ديوان ظافر الحداد – تحقيق د. حسين نصار – صـ ٤١.

.. وتعددت صلات ظافر بكبار رجال الدولة ممن عاصرهم، فكان على صله وثيقة بوزراء عصره، وكان أكثر الوزراء اتصالاً به " الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى، ويعد عصره من أزهى العصور الأدبية.

حيث خلا شعر الشعراء من شكوى، وهذا يرجع إلى كثرة عطايا " الأفضل " لهم، ويقول الدكتور محمد كامل حسين: " اتصل ظافر بالوزير الأفضل الذى جمع حوله من الشعراء أكثر مما جمع الخلفاء الفاطميون وقدموا إليه من المدائح أكثر مما قدموا إليه، فجعل مؤرخى الأدب يطلقون على هؤلاء الشعراء " شعراء الأفضل " ويعدون عهده من أزهى العصور الأدبية التى شاهدتها مصر الإسلامية " [1].

ويقول ظافر معبراً عن فرحته بلقاء الأفضل:-

فياتفس هذا أول العهد بالعلا ... ويا حظ، هذا الوعد أن سأسود

وهذا المقام الأشرف الأمجد الذى ... له كنت أسعى جاهد وأرود

وهذا الجناب الأفضل يكننى ... ذرى ظله، إنى إذن لسعيد

وعندما سمع الأفضل شعر ظافر استحسنه.

ووثقت عرى الصداقة بين ظافر والوزير (المأمون) الذى لقب بعدة ألقاب منها (السيد لأجل، والمأمون، وتاج الخلافة، وعز الإسلام، وفخر الأنام، ونظام الدين)، وقد حدث فى أيام توليه بعض الاضطراب ولكن ظافر حافظ على ما بينهما من صلات فنجده يقول فى حقه:-

إن الخلافة ما اصطفتك لنفسها ... حتى اختيرت لكل أمر يحمد

فاشتقت الألقاب فيك لأنها ... وصف جميل فى صفات توجد[2]

(١) فى أدب مصر الفاطمية – محمد كامل حسين – صـ ١٧٩.

(٢) ديوان ظافر الحداد – تحقيق د. حسين نصار – صـ ٤٨.

وآخر من اتصل بهم ظافر من وزراء عصره، وممن كانت تربطه بهم صداقة هو الوزير (الأكمل) وكانت صلته به قديمة من أيام الوزير " الأفضل " وقد أشاد به ظافر إذ يقول:-

وحقك يا ثانى الأفضلين يميناً ترى برة لا غموسا

لقد سمَا الملك فى العالمين وأعجزتما ملكا أن يسوسا

أعد جيوشك للمشرقين وللمغربين لكيما تجوسا[1]

ومن أكثر معاصريه الذين ارتبط بهم، ونمت بينهما صداقة وألفة استمرت سنوات طويلة حتى افترقا هو.. الشاعر أبو الصلت أمية الأندلسى (٤٧٠ – ٥٢٨ هـ) فقد جمع بينهما حب الأدب، الذى لم يكن حرفة أحدهما، فظافر كان يمتهن الحدادة، وأمية الفلسفة، وألف بينهما الشعور بالغربة فى مجالس الإسكندرية: الغربة النابعة من صناعة أولهما، ومن نزوح الأخر من موطنه فالتقيا على صداقة صادقة.

واستمرت الصداقة بينهما حتى بعد أن زج بأمية فى السجن، وبعدها رحل إلى المغرب، فظلا على عهدهما وصداقتهما وظهر هذا فى مجموعة الرسائل التى كانا يتبادلانها وقد بعث ظافر برسالة إليه يذكره بالأوقات الممتعة التى قضياها سويا فى الإسكندرية إذ قال:-

لئن بعدت ما بيننا شقة النوى ومطرد طامى الغوارب خفاق

وبيد إذا كلفتها العبس قصرت طلائح أنضاها ذميل وإعناق

فعدى لك الود الملازم مثلما تلازم أعماق الحمائم أطواق

(١) ديوان ظافر الحداد صـ ٥٢ .

ألا هـل لأيـامى بـك الغـر عـودة كعهـدى وثغـر الثغـر أشـنب بـراق

وقد كان ظافر لين المعاشرة، محباً لأصدقائه، وفياً لهم، محافظاً على صداقته ومعرفته بهم حتى عُرف بينهم بخلقه الجم، وطبعه اللين، ومروءته المعروفة ولنذكر بعضاً من صفاته وأخلاقه وطباعه التى عُرف بها من خلال شعره، يقول الدكتور حسين نصار:- " نستطيع أن نستوحى شعره صورة تستوى أما منا لرجل مصرى كريم ".

❁❁❁

ومن (أخلاقه وطباعه) العزة والإباء، إذ يقول:-

إنـى أعـاف الـذل فيمـا أبتغـى فلهمتـــى عـــن جانبيـــه نشـــوز

ما خاب من هضم التفضل ماله كرمـــا، ووافـــر عرضـــه محـــروز

❁❁❁

ومن أخلاقه المروءة : إذ دعته إلى الجود فاستجاب لها، على الرغم مما كابد فى الحصول على ما حصل عليه إذ يقول:-

أيحسب فيك اللوم أنى سمعته إذن بخلـت كفـى بمـا أنـا واجـد

❁❁❁

ومن طباعه: حسن المعاشرة، وقد ذكر هذا فى قوله:-

إن لـم أخـض لجـج الغـرم وأمتطـى طلـب الوصـال بكـل أشـعث رائـق

وأكـره بـين الجحفلـين معرضـا نفســى هنــاك لطــاعن أو راشــق

نكـرت كعـوب الســمهرية راحتــى وعـدمت آثـار النجـاد بمـا تقـى

وفـررت عـن خصـمى وعـاف معاشـرى خلقـى، وخيـب مـائلى أو طـارقى

ومن هنا وجدنا صفات حسنة، اتسم بها شاعرنا، وأخلاق كريمة تحلى بها، وطباع حلوة عرف بها، وقد عرفنا كل هذه الصفات من خلال ما سجله من أبيات شعرية تحدث هو عنها، ووجدنا أن ما سجله من شعر يظهر به طباعه وأخلاقه قد انقسم إلى فئتين، فئة حميدة ذكرناها، وفئة ذميمة خلعها على نفسه ومنها: (كراهيته أن يخضب شيبه) وإن كرهه كل الكره، ورأى أنه والموت سواء وأن الجدير بمن فقد شبابه أن يفقد حياته معه، وقد أثبت هذه الكراهية من خلال قوله:

لقد قدح الشيب فى جانبى وأثر ما ليس بالواجب

أتانى عنه تولى الشباب فلقيت بالأشمط الشائب

فلما تظلمت من فعله وضقت به، قال لى صاحبى

لقد غض منك فهلا لبست على رغمة حلة الخاضب

فقلت: الشباب على صدقه تخون فما الظن بكاذب

أما الخصلة الثانية والتى عدّها ظافر من الصفات الذميمة هى. الخوف من ركوب البحر على الرغم من نشأته فى الإسكندرية، وحبه لبحرها، إلا إنه كان دائماً ما يخشى ركوب البحر، وقد أثبت ظافر هذا الخوف فى قوله:-

أمرتنى بركوب البحر مرتئيا فغر غيرى واخصصه بذا الراء

ما أنت نوح فتنجينى سفينته ولا المسيح أنا أمشى على الماء

وعلى هذا النحو، أثبت ظافر من خلال أشعاره، صفات، وأخلاق، وطباع بعضها تحلى بها وبعضها عدّها من الصفات الذميمة، وقد دارت معظم صفاته الحميدة حول التقى، والنخوة، وطيب العشرة، وقد استقى مجموعة من أخلاقه من الدين الذى

اعتنقه، ومجموعة من المجتمع الذى عاش فيه، وثالثة من الأصدقاء الذين اتخذهم، ويقول الدكتور حسين نصار: " كانت النخوة هى المحور الذى دارت حوله أخلاق ظافر، ويلفت النظر منها ثلاث خصال العفة، وبعد الهمة، والجود " [١].

۞۞۞

وفـــاته:ـ

يتفق أكثر المؤرخين على أن وفاة ظافر كانت فى المحرم سنة٥٢٩هـ.

وكانت وفاته فى الفسطاط، بعيداً عن الإسكندرية، البلد الذى نشأ فيه، وتمنى كثيراً أن تكون نهايته فى بلده الحبيب، ولكن القدر أبى أن يمنحه هذه الأمنية، وقد جسد لنا ظافر هذا الشعور من خلال قوله:

عسى منية قبل منية تنقضى ... فيرشف ثغر الثغر طرفى إذا رنا

سألتك يا رباه عودا، فجد به ... وجاز بخير من دعوت فأمنا

شــعره:-

لظافر مجموعة من القصائد الطوية والقصيرة، وعدة مقطوعات أفرزها جميعا لإبراز ما وهبته تجاربه المختلفة من مشاعر، وأفكار، وقد طرق ظافر مختلف الأغراض الشعرية، من مديح، وغزل، ووصف، ورثاء، وحكم ونصائح ويعد ظافر من الشعراء المصريين الذين أداروا شعرهم على الوصف، سواء أكان وصفا للطبيعة أم وصفاً لمظاهر الحضارة والعمران، وللإسكندرية من شعر ظافر نصيب كبير، فما تذكرها وهو بعيد عنها، مفارق لها فى الفسطاط إلا قال شعرا يتشوق إليها، ويصف مجالى لطبيعة والبحر فيها، وما أرقه وهو يقول فى وصف الثغر وخليجه ورياضه:-

نعم المحلُّ ونعم مرتبع به ... يجلو جنان الصَّبِ مِنْ أَوْ صابه

---

(١) مقدمة فى ديوان ظاف الحداد – تحقيق د. حسين نصار – صد ٦٥.

أسفى على ذاكَ الزمانِ لَوْ أَنه   بالصَّخر فَتَّتَ منه صُمَّ صِلابه
ياليتنى أحظى بشمِ نَسِيمه   وبديعِ منظره، ولَثْم تُرابه
ويُعلُّنى ذاك الخليج بشربةٍ   سيما إذ انتسجت دُروعُ حبابه
وصفا وراق وعاد مَدُّ زُلاله   كالسيف جرد من خلال قرابه
فكَّأنه والريحُ تنقن منه   حرزُ عليه يُدَقُ خَطٌّ كتابه
حيث الغصون رواقص، ويمامُها   يشدو لطيب الزَّمر من دُولابِه (١)

❊❊❊

ولشاعرنا ظافر الحداد وقفات بالربيع الذى كان يفتنه بحسنه، فوصفه فى أكثر من لوحة مثل ربيعته اتى يقول فى مستهلها:-

هذا الربيع أتى بحسن منظر   يختال بين مديح ومعصفر

ومثل قوله:-

هذا الربيع وهذه أنواره   طاب الزمان وأورقت أشجاره
فشرب على وجه الحبيب وغننى   هذا هواك، وهذه أثاره (٢)

❊❊❊

وقد حفل شعر ظافر بصور شتى، فلم تقع عينيه على شئ إلا وقد تناوله بالوصف، وهذا ناتج عن البيئة الجميلة التى عاش فيها، فقد وصف شاعرنا أسماك النيل، ووصف الحمام ووصف الفحم، ووصف الخال فى وجه المحبوبة وشبهه فأجاد تشبيهه إذ يقول:-

(١) مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى – محمد عبد الغنى حسن – صـ ٢٧٥.
(٢) نفس المرجع السابق – صـ ٢٧٧.

انظر إلى الخال على خدها فإن فيه كل معنى دقيق

كوجه زنجى يدا من خلا ل النار يدعو بالحريق الحريق !

أو حبة من سبح رصعت فى صفحة من كرة من عقيق

أو السواد المستحب الذى يلمع فى حمرة زهر الشقيق (١)

❁❁❁

وكان لظافر مواقف كثيرة مع الدنيا وتقلباتها وغدرها ومتناقضاتها وعين الناس فيها على خوف وحذر فنجده يقول:-

ما أغدر الدنيا، وليس لغدرها أثر يقصر من لجاجة طالب

شمطاء تقتل بعلها، وفعالها مما يزيد بها غرام الخاطب

ويقول:-

أف لها دنيا فلا تستقر وعيشها بالطبع مر كدر

جميلة المنظر لكنها أقبح شئ عند من يختبر (٢)

❁❁❁

.. ومن الأمور التى برع فيها شاعرنا – وصفه للشباب والشيب – فقد كان يكره الشيب ومع كرهه له كان لا يختضب، إذ يقول :

ولو شئت أخفاه الخضب، وإنما أنا أنقى من أن يداخله غش !

وكان يكتفى من مداراة الشعر الأبيض بقصه، إذ يقول:-

---

(١) مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى – محمد عبد الغنى حسن – صـ ٢٧٩.

(٢) نفس المرجع السابق – صـ ٢٧٩.

وبـادرة للشـيب بـادرت قصـها لأرفـع بـادى خيطهـا وهـو ينـزل
فقالت: لئن قصرت منى تخوفا فأيـدى الليـالى مـن ورائـى تغـزل !
وهـل أنـا إلا سـقطة الزئـد صـادفت مواضـع طعـم، فهـى تـذكى وتشـعل
فسـالمتها لمـا تيقنـت أنهـا ومـا خلفهـا جيـش مـن الله مرسـل

فقد كان ظافر على يقين من أن كل شعرة بيضاء مقصوصة، وراءها جيوشاً من الشعر الأبيض – وأكثر شاعرنا – ظافر الحداد – من غزله وغزله إما أن يكون قائماً بذاته من أجل الغزل، لا استهلالاً لمدح، ولا تخلصا إلى غرض آخر وإنما غزلاً يتوصل به إلى ما يريده من الأغراض الأصلية، ومن غزليات شاعرنا القائمة بذاتها قوله:-

لعمـرك لـو نظـرت مقلتـاك فتـور العيـون مـن الرقـع
وذاك الحـديث العـذيب الـذى جرعـت بـه الشـهد فـى الأجـرع
وكيـف يصـيد الغـزال الهزيـر ويسـطو الضـعيف علـى الأروع
وكيـف تكـرر خـوف الرقيـب وداع الإشـارة بالأصـبع
وأبصـرت كيـف تـذوب النفـوس وتنهـل فـى صـورة الأدمـع
لأنبـأك قلبـك أن المـلام إذ اسـتحكم الحـب لـم ينفـع (١)

وقد كثر شعر " الشكوى " عند ظافر، وهذا يرجع إلى اضطراب الأحوال وعدم استقرارها، حتى عانى الناس فترات من الجوع، والحرمان، وضآلة المال فنجده يقول: شاكيا أمره وحاله إلى أحد الأمراء:-

إليك التجا من ضامة الدهر واعتدت عليـه خطـوب لا تطـاق صـعاب

(١) مصـر الشـاعرة فـى العصـر الفـاطمى – محمـد عبـد الغنـى حسـن – صـ ٢٨٣.

وكـم كـائن أودى بـه ضـنك عيشـه ... ولـلــدهر فيــه مخلبــان ونـــاب

فنـادى أبـا عبـد الالـه علـى النـوى ... فـنفس ذاك الخطـب منه خطـاب

وقـــد بشـــرتنى بالنجـــاح دلائـــل ... وظـن صـفا سـرا فلـيس يشـاب

فجاهـــك موقوفـــا لمـــن يســـتميحه ... وذلــك عــرف لا يخــل، وداب

❁❁❁

وقد كان ظافر عفيفاً فى قوله، فلم يبسط لسانه فى هجو الناس، وإذا هجا فإنه كان يتعفف عن الإفحاش والإقذاع فى قوله، وقد ندر الهجاء فى شعر ظافر، فلم نجد منه إلا القليل، مثل قوله فى شخص ثقيل قد بلى به، فلم يجد من هجائه مفرا، فقال فيه:

وثقيل فى القلب والعين والسمع فكل من أجله فى عذاب.

قربـه مثـل فرقـة الـنفس والأحبـا ... ب والعـــز والغنـــى والشـــباب

لو سألت الأيام عن كل ما تكر ... ه لـم تلـف غيـره فـى الجـواب

وهو دون الكلاب قدرا ولو أنصفت نزهت عنه ذكر الكلاب

فهو يصف هذا الرجل الثقيل بكل ما تكرهه النفس منه، فهو ثقيل كويه، مثل فراق النفس والأحباب والشباب وكل شئ عزيز ثمين.

❁❁❁

.. وقد ولج ظافر باب الحكمة والنصح والإرشاد، فمال إلى وزن الأمور بالعقل والحكمة والاتزان، ورأى أن العقل هو الميزان الصحيح الذى نزن به الأمور، والعقل هو الذى يقى الإنسان السقوط فى العيب إذ يقول :

أرى الشــر طبــع نفـوس الأنـام ... يصــــرفها بـــين عـــاب وذام

ولكنهـــا زجـــرت بـــالعقول كزجـر الجمـوح يجـذب اللجـام

ويقول ظافر أن العقول ليست كلها سواء، والإنسان العاقل هو الذى يوفر لعقله كل ما يهيئ له حسن العمل إذ يقول:-

وإذا مـــا الفهـــم عـــازك لـــم تنتفـــع بـــالوعظ والعـــذل

وتتعدد مواقف ظافر من شعر الحكمة فنجده يتحدث عن القدر الذى يؤمن به إيماناً لا يتزعزع فالقدر لابد أن يكون، لا يخلص منه فرار، ولا يبعده حذر إذ يقول:-

لكـن إذا أكـد المقـدار عقدتـه فكـــل حـــل إذا حاولتـــه تعـــب

سـلم إذا كـان مـا لابـد منـه فمـا ينجيـك مـن كونـه حـرص ولا هـرب

ويقول أن الإنسان عليه ألا يفرح بما أوتى من فضل ولا يأسى على ما حرم ومنع إذ يقول:-

لا تفرحن إذا أعطاك من عرض فـإن بعـض عطايـاه لـه سـبب

ونجده فى موضع آخر يحذر من السخط والنقمة وعدم الرضا إذ يقول:-

إذا مـا افتقـرت فـلا تسـخطن فتعـــدم شـــيئين: أجـــرا ورزقـــا

وهبـك سـخطت فمـاذا تفيـد وأكدت للضيق أن سؤت خلقا

تهـــون همومـــك طـــرا إذا أجلـــت بفكـــرك أن لـــيس تبقـــى

وأن المقـــدر لابـــد منـــه علـــى مـــن تبـــذل أو مـــن تـــوقى

وأن المواهـــب قـــد قســـمت وكانـت، فـدع عنـك حرصـا وحـذقاً[1]

(١) ديوان ظافر الحداد – تحقيق د. حسين نصار – صـ ٧٣.

ولظافر شعر كثير عن الموت الذى يراه نهاية كل شئ، فهو الغاية التى ينتهى إليها كل إنسان، شجاعا أو جبانا فنجده يصوره إذ يقول :

عجبت لآمن ساه ... له بحياته جذل

وجيش الموت يطلبه ... وقد ضاقت به السبل

وما فى قصده شك ... ولا يدرى متى يصل

وسيان الجبان لديه ... عنه عند البطش والبطل

ونجده فى موضع آخر يصور بغتة الموت فيحذر النفس منها، فإن يغتته لا تختار ولا تصطفى، وإذ حل بالإنسان الأجل لا يستأجر ساعة ولا يستقدم، فهو القائل:-

يا نفس ما عيشك بالدائب ... فقصرى من أمل خائب

ويك، أما يكفيك أن تبصرى ... جنائزا تنقل بالراتب ؟

بالطفل والبالغ والمبتدى ... شبابه والكهل والشائب

من والد أو ولد أو أخ ... أو من غريب منك أو صاحب (١)

لقد كان ظافر فى طليعة شعراء عصره، الذين تأثروا ببيئاتهم تأثراً واضحاً، وقد ظهر هذا فى كثير من موضوعات شعره، فلم يترك ظافر موضوعاً إلا وتحدث عنه، وأظهر فيه مقدرته الشعرية، وبراعته الفنية وتصويره لواقع ملموس كان ظافر جزءا لا يتجزأ منه.

❁❁❁

(١) ديوان ظافر الحداد صـ ٨٠ .

مقدمات القصائد فى شعر ظافر الحداد
للّه دراسة موضوعية للّه

..أولى ظافر الحداد مقدمات قصائده عناية خاصة، فأفرغ فيها جانباً مهما من خواطره، ومشاعره، وما يعتملها فى وجدانه.

وتلك خاصة الشعراء الكبار وخاصة المادحين منهم، وإن لم يذب فى الممدوحين ولم يجعل موهبته مسخرة لإرضاء هذا أو ذاك.

وتعد مقدمات القصائد فى شعر ظافر نمطاً فريداً متميزا بين شعراء عصره، إذ جعلها معرضاً للتعبير عن خواطره، وحاجات نفسه، وأطلق لشاعريته العنان فى التعبير عما يحبه، ومن ثَمَ بدت قصائده فى هذا الجانب – جانب المقدمات – مثلاً فريداً من نوعه فى قوة الشخصية الشاعرة، وبروزها، وتعاليها على عوامل الضعف والانحدار.

ومن يطلع على قصائد ظافر الحداد، أو مطولاته.. يأخذه العجب من هذه المقدرة على استجلاب المعانى الوجدانية، والتعبير الدقيق عن المشاعر والإحساسات، وبروز الجانب الذاتى فى شعره بصورة تلفت النظر.

استهل ظافر قصائد المديح عنده بمقدمات غزلية، عُرفت قديما لدى كثير من الشعراء العرب، فقد كانوا يقولون: " إن أجمل الشعر ما كان غزلاً مقدما بين يدى مديح ".

وقد اتبع ظافر فى قصائده مسلكين:–

الأول : اقتفائه المنهج العربى الموروث مع إضافة بعض التغييرات حتى لا يكون مقلداً.

الثانى: ابتداعه أسلوبا خاصا به فى كثير من مقدمات قصائده حيث كان يبدؤها بدون مقدمات أو استهلالات.

۞۞۞

... وتجلت المقدمات الغزلية فى قصائد شاعرنا، فقد أراد ظافر أن يحطم حصار الرقابة المحكم حوله، فعمد فى شعره إلى التلوين والتغيير

وخاصة فى مقدماته الغزلية، والتى بدأها بالحديث عن المغامرات التى يخوضها فى جنح الليل لمقابلة محبوبته، وقد صور هذه المغامرة بجسارة وشجاعة واضحين.

وقد رسم هذه المغامرة فى لوحة فنية رائعة فى إحدى قصائده المدحية إذ يقول :

كم مهمه جبت من أجل الهوى فرقا ... يكبو لخيفته الساعى من الرعد

وليلة مثل عين الظبى داجية ... عسفتها ونجوم الصبح لم تفد

كأن أنجمها فى الليل زاهرة ... دراهم والثريا كفّ متقد

لو هَمَّ موقد نار أن يرى يده ... فيها ولو كانت الزرقاء لم يكد

وفى يمينى يمين الموت مائلةً ... فى صورة السيف لم تنقص ولم تزد

ماضى الغرارين لا تُدعى ضريبته ... بالعود لو أنه ألقى على أحُد

راوى الجوانب ظمأن الحشا فعلت ... فيه يد القين فِعل الأم بالولد

استطاع الشاعر أن يصور فى الأبيات الأولى من مقدمته، مغامرته الخطيرة التى أقدم عليها، وقام بها، دون أن يرده أحد، وقد خاض هذه المغامرة فى جنح الليل وظلامه الحالك حتى لا يراه أحد من أفراد القبيلة وصولاً إلى محبوبته وهى تقطن فى حيَّها.

ونجده يصور لقاؤه بها فى الأبيات التالية من المقدمة إذ يقول:-

فجئت أخفى خِطاء لو وطئت بها ... فى جانب الجلد مما خفت لم

حتى لثمت فتاة الحىّ فانتبهت ... ترنو إلىّ بعينىّ جُوذرٍ شردِ

فسلمت وهى ولهى من مخافتها ... حيرانه تمزج الترحيب بالحردِ

فظللت ألثمها طورا وأشعرها فعل الهوى بى وقد مالت على عضدِ

وقلت للقلب لما خاف بادرة ذا مورد عَزَّ أن تعتاضه فرد (١)

نجح شاعرنا فى أن يأتى بالجديد ويبرزه فى هذا الجزء من المقدمة، فقد صور هذا اللقاء بصورة مختلفة عما عهدناه فى الشعر قديما، فقد كانت المحبوبة تخشى لقاءها بمحبوبها، وحتى لو تم هذا اللقاء نجد منها الحياء والخجل، ولكن شاعرنا غير من هذه الصورة، فقد جعل محبوبته ترحب باللقاء وتسعد به، وإن امتزج هذا الترحيب بالخوف والحذر.

وإننى أرى أن شاعرنا تخطى الحواجز التقليدية التى سار عليها غالبية الشعراء وأتى بالجديد الذى يواكب حضارة عصره وتقدمه، فكانت المرأة فى هذا لعصر نموذجاً حيا ومؤثرا لدى الشعراء.

ويختتم شاعرنا مقدمته الغزلية الأبيات التالية، فيوضح موقف محبوبته حيال هذا اللقاء إذ يقول :

فودعتنى وقالت وهى باكية إنى أخاف عليك الموت أن تعد

وسرت والليل قد ولت عساكره والدهر يأكل كفيه من الحسد

.. ويحسن شاعرنا التخلص من مقدمته الغزلية الطويلة ويصل إلى الموضوع الأصلى للقصيدة وهو مديحه للأمير سعيد والى الإسكندرية إذ يقول:-

أضحى بفضلك ثغر الثغر مبتسما يزهو من العدل فى أثوابه الجدد

ثغر تجمع خير الأرض فيه كما جمعت من كل فضل منفرد

ما زلت حتى رأيت الناس كلهم فى واحد وجميع الأرض فى بلد

---

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٨٦، ٨٧، ٨٨.

ونلاحظ ثمة اتصالاً وثيقاً بين المقدمة والموضوع الأصلى، وهذه الصلة تكمن فى إحساس شاعرنا بالغبطة والسعادة وهو قريب من محبوبته، فإذا فارقها تبدد هذا الشعور، ولكن سرعان ما يرجع له فرحه وتعود إليه سعادته بقربه من الأمير، ولقائه به، الذى يفيض على شاعرنا كرماً وجوداً .

❁❁❁

وهذه مقدمة غزلية لقصيدته النونيه، فى مديحه للوزير المأمون:

وقد قسم شاعرنا هذه المقدمة إلى عدة فقرات نظراً لطولها حتى بدت لنا أنها هى القصيدة وليست المقدمة.

تحدث فى الفقرة الأولى من المقدمة عن حبه وولعه بهذا الحب الذى أضناه وسبب له الهوان والشقاء.

تحدث فى الفقرة الثانية عن: صفات محبوبته الحسية.

وتحدث فى الفقرة الثالثة:- عن الحوار الذى دار بينه وبين محبوبته.

ويقول فى الأبيات الأولى من المقدمة:-

كم قَدْرُ ما أُخفى الهوى وأَصونُ ... والدمعُ يُعْرِب والسَّقام يبُين

قَدْ كنتُ مَعْتضَدا بحبل تَجُلدى ... ألقى به الأهوالَ وهو متين

وإذ الفتَى عَبثَ الغرامُ بقلبه ... فالصبرُ شكٌ والغَرامُ يَقين

يا قلبُ كُنت أَدلُّ منك بعزمةٍ ... حتَى دَهتْكَ سوالف وعُيُون

فَسَبتْك لمحةُ شادن من برقعٍ ... وتَصَّرفت بك فى الفنون فنون

ووفيت لى لما صحبتُك فى الوغى ... فإذا التمستك بالسلو تَخُون

إن الهوىَ لهوُ الهوان وإنما اخـ ... تصروه تخفيفا فزال النون (١)

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٢١٤.

استطاع الشاعر فى الأبيات الأولى من المقدمة، أن يبين حاله، وما هو عليه من شقاء وتعب لقاء هذا الحب، الذى تغلغل فى قلبه حتى بدت دموع عينيه من فرط هذا الحب، وبدا السقام يزحف على جسده من معاناته وكانت دموعه، ومرضه وكانت دموعه ومرضه يظهران حالته.

ويتحدث شاعرنا عن نفسه قبل أن يعرف هذا الحب، فكان قوياً صابرا على ما يقابله من أهوال، ولا يزعزعه شئ عن مجابهته للأخطار، وقد تبدد به الحال عندما شغف الهوى قلبه، وعبث بنفسه، فلم يعد يطيق الصبر لأن غرامه صار يقيناً، ونجده يتحدث عن قلبه قبل أن يصيبه الغرام فكان ذا همة وعزم ولكن همته فترت وعزيمته ضعفت أمام هذا الحب.

ويصرح شاعرنا بأن الهوى هو الهوان الذى يلاقيه المحب من حبيبه.

.. ويتحدث شاعرنا فى الأبيات التالية من المقدمة، ملمحاً إلى مفاتن محبوبته إذ يقول:-

يا صاح لا يغررك ظبى كانس فالظبى لَيْث والكِناس عَرين

من كل أهيف ينثنى لقَوامِه نَعمانُ ثم لِردفِه يَبْرِين

كالرمح قدّاً غَير أَنَ سنانه لحظٌ له قلبُ الكمى طعين

لا تُقْدِمَّن إذا العيونُ تعرضت فالسحر بين جفونهن كمين

هى مصرع الألباب تخدع ذا النهى فَيَرُوح وَهُوْ رهينُها المفتون (١)

تحدث شاعرنا عن صفات محبوبته الحسية والتى أسرته بمفاتنها وجمالها ومنها عيونها التى شبهها بعيون الظبى الذى يبدو ومستأنس مستكين ولكن يملك قوة الليث فى تمكنه من قلب المحب العاشق، الذى يقع صريعا

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٢١٥.

ويتمكن هذا الحب من شغاف قلبه فيبدو ضعف المحب وقوة الحبيبة، والتى تبدو كقوة الليث فى عرينه.

ويصف شاعرنا قوام محبوبته بأنها معتدلة القد رشيقة القوام .

... ونلاحظ أن شاعرنا اتبع المنهج التقليدى الموروث عن العرب وقفاهم فى رسم صورة المرأة التى أحبها .

ثم يدير شاعرنا حواراً طريفاً مع فتاته يطارحها من خلاله رؤاه ويرد على لومها له وعتبها على سلوكه فى الحياة إذ يقول:-

قالت:أضعتُ المالَ هل لك عنه ما تعتاض قلتُ الحمد وهُو ثمين

قالت: غنيت فقلت حسنك فاعلمى أن البخيل بماله مغبون

قالت: فإن الفقر هُون قلت لم يهن الكريمُ بَل اللئيمُ يهون

قالت: فإن المال نعم معونة الـ إنسان قلت له: الإله معين

قالت: فإن الوفرَ زَينٌ قلت كسـ ـبُ الحمد يَرْفَع أهله ويَزِين

والمالُ يذهب والثناءُ مخلد يحيا به الإنسانُ وَهْوَ دَفين

ياهذه ماذا أفاد بملكه فرعون أو بثرائه قارون

قالت فهل لك من يُعوضك الغنى فلت الأجلُ السيُد المأمون (١)

وأجاد شاعرنا فى التخلص من هذه المقدمة الطويلة وبالأخص فى البيت الأخير إذ جعله صلة قوية بين مقدمته الغزلية وبين مدحه للسيد " المأمون " حسبما أكد، ومن ثم استطرد فى مدحه بعد ذلك بقوله :

(١) ديون ظافر الحداد – صـ ٢١٦.

أصبحت سيفا للخلافة حاليا حيث ازدهى بك عاتق وجبين

فافخر فأنت وزيرها ومشيرها وأمينها، وظهيرها الميمون

۞۞۞

وتتجلى براعة شاعرنا الإبداعية فى مقدمات قصائده المتنوعة فنراه يقول فى احداها :

وليل تخَطَّتَ فى سُوَيداء فؤادِه عزائمُ شوقٍ والنجومُ رُكود

أخوض غمارا من عَجاج ظلامه بحيث تقول الجنُّ أين تريد

ظلامٌ كأحداق الجآذر لونُه دَجَا فضياء النار ليس يفيد

تعسفته سَعيْا على غير منهجٍ وكُدْر القطا عن أَخْمصَىَّ تَحَيد

فبادر عَدْوَى من بنى الغاب أهْرَتٌ عظيمُ القراعيلُ الذراع عَنود

أخو حَنَقٍ غَصَّ الفَلا بزئيرهِ له وثْبَةٌ فى سيره ووئيد

فألجمته عَضب الغرارين كاسرا هو الموتُ لو لا أن يقال حديد

إذا مَجَّه الغِمدُ استنار كأنه شبابٌ له بعد الهدوء وقُود

فشَّتتُ من شطريه شمْلا بضربةٍ لها عادةٌ لا تبتدى فتعود [1]

.. لقد بدأ شاعرنا قصيدته بهذه المقدمة الغزلية، التى أفصح من خلالها عن مكنون حبه وغرامه، وأراد أن يُعلن هو عن حبه حتى ولو لقىّ فى سبيله المخاطر والأهوال، وقد صور لنا فى أبياته السابقة ما اعتراه من صعوبات

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٨٩، ٩٠.

ومغامرات كىّ يصل إلى محبوبته ومن هذه المخاطر مواجهته مع الأسود الكاسرة التى ظهرت له، وهو يجوب الغاب فى ظلام الليل الحالك وصولاً إلى لقيا محبوبته، وما كان من شاعرنا إلا المواجهة معها ومحاولة التغلب عليها كىّ يحقق ما كان يأمله من اللقاء.

ويخلص الشاعر من مقدمته إلى موضوع القصيدة وهو مديحه للشاهنشاه فنراه يختتم قصيدته قائلاً:

أفاض على الدنيا سوابغ عدله ... ففى كل يوم للسعادة عيد

فيابن مغيثِ المُلك بالرأيِ والقَنا ... فَقَصْدكَ للنوعين منه سَديد

أبوك الذى شد الخلافة بعد ما ... تزعزعَ منها بالنفاق عمود

وبَيَّضَّ مُسْوَد الليالى بَعْد لِهِ ... وذَّلل صعبَ الدهرِ وهو كَنود

❁❁❁

وهذه قصيدة أخرى فى مدح الوزير الأفضل وتهنئته بالعيد وقد بدأها بداية غزلية رقيقة بقوله :

لى فى فنون الحب أعجب ... جاءت مفصلة على استدراج

أبصرت ثم هويت ثم كتمت ما ... ألقى ولم يعلم بذلك مناج

ووصلت ثم قدرت ثم عففت مع ... شوق تناهى بى إلى الإنضاح

حتى رأيت البين جُدَّ وأعربت ... نغم الحداةِ بهم عن الإدلاج

فوشت بى العبرات والزفرات للـ ... ـواشى ودائم لفظى اللجاج

خانوا ودمت على الوفاء ولم أحل ... فى ذاك عن خلقى ولا منهاجى

خلق تقهقهر عن طريق مذلة ... وتلوحُ أسباب العلى فيفاجى (١)

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٦٦.

يوضح الشاعر بهذه المقدمة الغزلية الرقيقة منهجه فى الحب والغرام وهذا المنهج يقوم على الوفاء لمن أحبهن وعدم خيانته لهن مهما وشى الوشاة – فالوفاء صفة أصيلة فى خلق شاعرنا .

ويحسن الشاعر التخلص من هذه المقدمة والتى بدت فى شكل قصة شعرية إلى موضوع القصيدة وهو مديح " الأفضل " إذ يختتم مدحته بقوله:–

أنت ابن من نَصر الخلافة عزمُه بالسيف من مُنافق ومُداج

وأصاب فيها الرأى والألبابُ لم تظفر برأيٍ قبلُ غير خِداج

وورثت هذا الملك عنه لسعده فأتاك وهو إليك أفقر راج

فتهنَّ هذا العيد فهو مهَّنأ بورود زاحرُ فضلك العَجَّاج (١)

❁❁❁

وهذه مقدمة غزلية رائعة لقصيدته " البائية " فى مدحته المطولة " للأفضل " وصف فيها ما قاساه من لوعة الحب وشقائه، وعدد محاسن محبوبته فبدت فى لوحة فنية رائعة إذ يقول:–

آهٍ من لَوْعَةٍ وجدٍ دائم يَتَلظَّى فى حَشى مُلْتَهبِ

هى أسيافٌ وتدعى حَدَقاً يالقومى من عيون العْرَبِ

فاتَّق الأضْعَفَ منها فلقد نقضت عاداتها فى الحسب

واحذر الأضعف من أجفانها فالمنايا بين تلك الهُدف

أين ما كنا تناجينا به وغرابيب النَّوى لم تَنْعب

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٦٩.

مــن حــديثٍ عَــذبَتْ ألفاظُــه　　كَضَــريبٍ كــامنٍ فــى ضَــربَ

عجبــى منــه وإن أكثــرتُ فــى　　كــل مــا أبصــرتُ منــه عجبــى

لؤلــــؤٌ أَصْــــغُره أَفْخَــــرهُ　　جَـلَّ فـى السـلِكِ وإن لـم يُثَقـبِ

تحدث " ظافر " فى مقدمته الغزلية عن اللوعة والوجد والألم وهى مشاعر المحب تجاه محبوبته، وهو ملم بكل هذه المشاعر، فكم قاسى من عيوناً محبوبته التى وصفها بالسيف النافذ فى قلبه بلا رحمة ولا شفقة، ويتعجب من أثر عيون العرب فى الآخرين، فهىّ ليست عيون، إنما هى سيوف نافذة، ورماح طاعنة تنفذ فى قلب المحبين، ولا يتوقف حديث شاعرنا عند العيون، فيتخطاها إلى عذب الكلام، وسحر المناجاة بين المتحابين.

ويتعجب شاعرنا من كثرة مفاتن محبوبته، فكل ما فيها جميل يتحير فى وصف محاسنه.

ويخلص ظافر من مقدمته الغزلية إلى موضوع القصيدة وهو مديحه الأفضل إذ يقول:-

يا ابنُ محيى الملك من بَعْدِ النَّوىَ　　وهــوى كــل مــن يــابى ســحب

ومُجيــرِ الدولــةِ الغَــرَّاءِ مــنْ　　جــورٍ بــاغٍ رامَهــا بالسَّــلَبِ

ومنيــر الأرضِ بــالأمْن وقَــدْ　　أصبحتْ من خوفها فى غَيْهَبِ

۞۞۞

ولا تقتصر مقدمات القصائد عند ظافر على الغزل وحديث الغرام فقد يكون الولوع والشوق لمراتع الصبا مواطن النشأة ويكون الحنين لتلك الأماكن المحببة إلى النفس والمرتبطة بالذكريات وولوعه بها، فها هو ذا يتشوق للأسكندرية ويتذكر هواه، وإذا ما ثار فى قلبه لا عج حبه تذكر ملاعبه

بالإسكندرية بين قصور الرمل، وعلى ضفاف خليجها وسط الزروع والبساتين، أو على شاطئ بحرها الهادر، يبعث أمواجه على الشاطئ، ويهب نسيمه فيطوف بوجهه، ويحييه بل يصافحه ويقبله وقد أحسن ظافر وصف مشاعر الحب والتعبير عن عواطفه، فجعل من الإسكندرية محبوبته التى يتغزل فيها، ويصل من خلال هذا الغزل إلى موضوع قصيدته، إذ يقول :

هل لى إلى الثَّغر مِنْ عَوْدٍ ومنقلبِ ... فالعيشُ منذ رحيلى عنه لم يَطِبِ

تُرى آزور القصور البيض ثانيةً ... بالرمل من غصون التين والعنب

وفوقنا شاهقات الكَرمْ أَخْبيةٌ ... من حولها قضب الأغصان كالظُّنُبُ

وللنسيم العليل الرّ طب وسوسةٌ ... فيهن كالسربين الرّفق والصخب

والوُرق فى خَلل الأوراق مُسْمعةٌ ... طَوراً غناءً وطورا نَوْحَ منتحِبُ

والروضُ ينشِرُ من نواره حُللا ... مما تُحوك يدُ الأنواءِ والسُّحبِ

والأفحوانة تحكى ثغر غانيةٍ ... تَبسمَّت فِيهِ من عَجبٍ ومن عَجَبِ

فى القدِ والنغرِ والريقِ الشَهْيِ وطيـ ... ـب الريحِ واللون والتَّفليج والشَّنَبِ

يا بلدنى إن يغب مغناك عن نظرى ... فإنه فى سَوادِ القلبِ لَم يَغبِ

واهاً على ذاك العيش الذى ذهبت ... أيامه فيك بين اللهو والطرَب

وللشبِيبة شيطانٌ يساعدنى ... على الهوى ويُواتينِى على أَرَبى

فإن دعانى الهوى لبَيَّتُ دعْوتَه ... وإن دعانى لسانُ العَنْب لم أُجِب

وهكذا يتشوق شاعرنا لبلدته ويصفها بصفات خلعها عليها كأنه يتغزل فى محاسن محبوبته، فيصف قصورها وأغصان التين والعنب فيها، ويتشوق لنسيمها العليل وأوراق أشجارها وغناء طيورها ورياضها ويتحدث عن ثغرها ويصفه بالجمال والعذوبة، فهو يتغزل فيها كما يتغزل فى قد وثغر وريق محبوبته، ويخاطبها ويناجيها كم يناجى محبوبته، ويذكرها بأن ذكراها فى قلبه حتى ولو لم يعد إليها ثانية، ويتحسر على بعده عنها وفراقه لها وأيام لهوه وصباه فيها فهىّ أيام غربت ولن تعود ثانية ويختتم مقدمته بأن نداء الحب إذا دعاه للذهاب لمقابلة محبوبته – الإسكندرية – لبى هذا النداء، وإن لسانه لا يجرأ على عتابه لها.

ويحسن شاعرنا التخلص من مقدمته إلى موضوع قصيدته التى خصها لمديح " الأفضل " إذ يقول :

خرق إذا قسته بالناس فى كرم وهمة قست لُجَّ البحر بالقُلُب

إن شئت أن تبصر الناس الألى جمعوا من الفضائل من عجم ومن عرب

فالكل فى بعض جزءٍ من محاسنه بغير عيب فقد شابوا ولم يشب

ما زال جامع أوصاف الكمال فلو لم يحوها ما حوتها كف مكتسب (١)

وتجلت قدرة ظافر الإبداعية فى " مدائحه " للأفضل، ولم نعرف شاعراً مدحه أكثر من مديح ظافر له، ومبرر هذا، أن ظافرا كان من المقربين له وأن فترة حكم الأفضل كانت تُعد من أزهى الفترات التى تمتع فيها الشعراء بجزيل عطاياه وهباته.

❁❁❁

(١) ديوان ظافر احداد – صـ ٥٤، ٥٥.

وهذه مقدمة غزلية لقصيدته النونية، التى مدح فيه الأفضل، فعدد من محاسنه إذ يقول:

ما زادنى فى القرب عما كنت أعرفه إلا أســـى وتباريحـــا وأشـــجانا

والبعد أهون من قرب يجدد لى مَـع مـا أكابـده صـدا وهجرانـا

مللــتم وادعيــتم أن ذاك لكــم طبعا صـدقتم قتلـتم هجـرى الآنـا

والله مـا حلـتم عـن عـادةٍ عرفـت مـنكم ولكنـه صـبرى الـذى خانـا

مـالى بُليـت بقـاس معجـب صـلف يرضـى إذا بـت بـالهجران غضـبانا

لـو لا تعلـق عينيـه لمـا تركـت أخلاقــه بــالقلى والصــد إنســانا

يا مسُقمى بجفون تدعى سقما لا أدعـــى مثلهـــا زورا وبهتانـــا

بى مـا بخصـرك مـن سُـقم وموجبـه صـــدّ كردفـــك تعنيفـــا وعـــدوانا

قصـدت ظلمى بلا ذنب كما ظلمت كفـاك ثغـرك بالسـواك أحيانـا (١)

عبر الشاعرعن انفعالات صادقة، وأحاسيس مرهفة لم تكن بالغريبة أو البعيدة عن شاعرنا، فقد عُرف ظافر برقة المشاعر والأحاسيس.

وهو هنا يحدثنا عن ما كابده وما عاناه من هجر محبوبته له، وصدها عنه رغم شوقه إليها، وهيامه بها، ويقسم شاعرنا بأن ما جرى من محبوبته إنما هى عادة اعتادها منها ولكن صبره عليها قد خانه ونجده يختتم مقدمته بأنه قد بُلى بمحبوبة قاسية متكبرة، أخذ منها صدا وهجرا وألما وظاما على الرغم مما أعطاه لها من حب وود وشوق.

---

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٣٠٢.

... ويحسن شاعرنا التخلص من هذه المقدمة، وصولاً إلى موضوع القصيدة وهو مديحه " للأفضل" : فيقول فى قصيدته:-

يفرق المال فى جمع الثناء له جود ويعتد جمع المال حرمانا

فما حوت كفه عينا ولا عرضا إلا ليجعله للحمد أثمانا

له على كل حُرمِنَه كتبت فى وجهه لجميل الذكر عنوانا

هذا على أنه يخفى صنائعه فينا ويأبى لما أخفاه إعلانا

.. ونلاحظ أن ظافر كان يميل دائما إلى عذابات نفسه بالوجد، والفراق، والألم.

.. فقليلاً ما كان يحظى برضا المحبوبة، وكثيراً ما يعانى الهجر والغدر ومبرر هذا يعود إلى ذاتية ظافر، فقد عرف عنه لين المعاشرة، وحسن الجوار، لهذا كان يخدع بالحب وإن كان حبا زائفاً.

وهذه مقدمة غزلية لقصيدته التائية التى مدح فيها " الأفضل " إذ يقول:-

للحبِ حبةُ قلبه فكأنه من ذاتِها وكأنها مِنْ ذاتِهِ

وغدا غريمَ غرامه من مقلتى رَشأ كمالُ الحُسْنِ بعضُ صِفاتِه

يبدو على الوردِ الجنَّى إذا بَدَا خجلٌ من التقصيرِ عَنْ وجَناتَه

يَمْشِى فَيَلقى خصرُه من رِدْفِه مثل الذى ألقاه من إعناته

وكأن نَمْلَ عِذَاره قد خاف أن يَسْعَى بِه فيزل عن مرآته

لا ترْع طرفك خضرةً بدرت به فمصارعُ العشاق بين نياته

ولقد سقانى من كؤوس غرامِهِ أضعافَ ما استعذبتُ من رشفاته

وحياته قَسَما أُعظِم قَدْرهَا وكَفَاك أَن أكُ مُقسما بحياتِه

لأُخالفَّن عَوَاذلى فى حُبِّهِ ولأُسخطن الخلق فى مَرْضَاته

ولأقنْعَن من المُنى بخياله زُورا يُمنينى يُخلف عُداته

لا تنكرن السحر فَهْو بطرقه ودليلُه مَا فى من نَفثاتِه(١)

رأى الشاعر هنا أن يعبر عن عواطفه، وعما يلقاه من صدود محبوبته له، فهو يقبل وهى تعرض، وهو يأنى ملبياً لنداء إحساسه ومشاعره وهى تنأى عنه وتبعد، ونجده يصف بعض محاسنها من حمرة الخد، ونحوله الخصر، وفتور العين وسحر الجفون التى تجعل من العشاق أسرى للحب وصرعى له، ولقد حذره الكثيرون من سحر العيون الكاذب، ولكن لم يستمع إليهم وخالف من سماهم " عواذل حبه " وأقدم على خوص غمار هذا الحب، حتى وإن لم يلق منه إلا الأمانى الكاذبة، والآمال الخادعة، إلا إنه يجد أن فى حبه حلاوة وأن هذا العشق إنما هو سحر جذاب يسرى فى عروقه ودمه لا يستطيع الخلاص منه وإنه سيظل على هذا الحب لا يتركه، ولا يهجره .

ويحسن شاعرنا التخلص من هذه المقدمة إلى موضوع قصيدته وهو مديحه للأفضل المفضل عند ظافر إذ يقول:-

فكَأَنه فَيْضُ النَّوال مقُسَّماً فى الخَلِق من كَفىَّ أبى بَركاتِه

جمَعْت تفاريقُ الفضائل تقسُمه فالوصف يقْصُر عن مَدَى غاياتِه

فى طَبْعِه عَصَبية مع نَحْوة أبداً يقضلها على لَذاتِه

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٥٧.

الفضـل بعـض صـفاته والحمـد بعـ ضُ رواتــه والجــود بعــض هباتــه

❁❁❁

وتتنـوع مقـدمات القصـائد عنـد ظـافر الحـداد، تبعـاً لتنـوع موضـوعات قصائده وتتجلى مقدرته الإبداعية فى بروز هذه المقدمات التى نجد فيها تعبيراً فنياً صادقاً لصيقا بمشاعره الذاتيـة، أو معبراً عن حالـة المجتمـع السائدة وقد أكثر ظافر من مقدمات الشكاية فى قصائده، وتنوعت الشكوى عنده، فكانت شكايته من الشيب الذى زحف على رأسه، ويخبره هذا الشيب بأن عهد شبابه قد مضى ومضى معه الحب والصبابة .

وشكايته من الزمن وقساوته، ومرارة العيش، ومذاق الجوع والحرمان، وإننى أرى أن هذه الشكوى لا يتفرد بها ظافر، وإنما هى شكوى جماعية فى وقت ارتفع فيه غلاء المعيشة، فلساءت أحوال الناس، وعانوا الفقر والحاجة والحرمان، فكان الشعر هو خير لسان يعبر عن حالهم.

وشكوته من الغربة والاغتراب وما يقاسيه من ألم ووجد وهو بعيد عن موطنه وقد أكثر من هذه الشكوى فكان ظافر يعتبر الإسكندرية موطنه الأول والأخير، ولا وجود لموطن آخر سوى قبره ويكون فيها.

❁❁❁

وهذه مقدمة عن شكاية ظافر من المشيب لقصيدته " النونية " والتى وصف فيها موطنه الإسكندرية.

وقد تحدث كثير من الشعراء عن المشيب الذى لمع برؤوسهم، وهم لم يبلغوا من العمر عتياً، وكيف أنهم لم يتغطوا بوفوده، بل ظلوا يتهالكون على الملذات، وما أكثر ما عللوا لشيبهم المبكر بكثرة الخطوب والنكبات التى صنعها الدهر عليهم.

ولا يختلف ظافر عن هؤلاء الشعراء فى حديثه عن المشيب الذى كان يبغضه وقد أظهر علامات هذا البغض فى العديد من قصائده الشعرية وإلى

جانب هذا، وجدناه يكره الخضاب، لأنه يراه تدليس الحقيقة ومخالفة للواقع.. إذ يقول:-

تـولى شـباب واقتـراب فأمعنـا ... ووالـى مشـيب واغتـراب فأَدْمَنـا

فيا حبذا ليل الشباب الذى نأى ... ولا حبذا صبح المشيب الذى دنا

إذا ما رأيت الشيب فى عارض امرئ ... وإن لـم يمـت فاحسـبه ميتاً مكفنـا

وإن ظهرت بيضاء فى مفرق الفتى ... فـأولى بـذاك الموضـع الضـرب بالقنـا

وقـدكـان صـبرى حـارب الهجـر والنـوى ... فمـا صَـدَّه ضـعف ولا غالـه ونـا

فلمـا ثنـى عنـه الشـباب عنانـه ... وشاهد من جيش المشيب مُكمَّنا

تـولى وكـم ناديتـه بعـد أن رأى ... طليعـة شـيبى للرجـوع فمـا انثنـى

وفق الشاعر فى أن يظهر شكايته من مشيبه ولكن بلون مختلف عن كثير من الشعراء فنجده يعقد مقارنة موضوعية بين شبابه وشبيته، ويتحدث عن أيام شبابه ولهوه وإقباله على الدنيا، وعلى النقيض فى أيام شبيه فقد شعر فيها بالغربة والاغتراب، ونجده ينعت ليل الشباب الذى تأى بأحسن الصفات أما ليل مشيبه فإنه يصفه بالليل الطويل البهيم الذى لا ينتهى.

وفى أبيات أخرى من المقدمة، وجدناه يصف دبيب الشيب فى مفرق الرأس بأنه كالكفن الذى يلف به الميت، فالشيب عنده كالموت لا يوجد فرق بينهما، فهو يبكى شبابه الذى ولى ومشيبه الذى أتى زاحفا بجيوشه متمكنا منه، ويحسن الشاعر التخلص من مقدمته عن مشيبه وشكايته من الشبيب إلى موضوع القصيدة الأصلى، وهو حديثه عن بلدته الإسكندرية منشأ شبابه وصباه، ويصف أيامه التى ولت وهو متنقلا بين مظاهرها ومحاسنها ولم نشعر بمفارقة بين مقدمة القصيدة وموضوعها، ففيهما اتصالا وثيقاً، ورابطا قوياً،

حيث يحكى عن شبابه الغض وهو بين ربوع الإسكندرية، ثم ينقلنا إلى تولى الشباب عنه ودبيب المشيب إليه وهو فى مقر استقراره بالفسطاط ويصف هذه الأيام– بأيام المحن والحزن والآلام يصاحبهما ألم الغربة ودبيب المشيب، إذ يقول داعبا راجيا من الله أن يعود إلى موطنه حتى ولو كان فى عودته موته.

سَقَى العهدَ عهد الثغر بل عَهد أهلهِ حياً كدموعى تجعل السيل دَيْدَنا

فكم لى به من غُدوة وعشية يقصِرعن إدراك أمثالها المُنى

فطورا لنا بين الكروم مَرابع يشاهد فيها البدرُ أمثاله بنا

وطورا على ماء الخليج وقد جَلا عليه نسيمُ الريح كَشْحا مُمكنا

كأن حبَاب الماء ثوب بَرقِش وقد شابه لون الضحى فَتَلوَّنا

لعمرى لقد خلفت منها موطنا أبى الدهر أن أعتاضَ منهن موطنا

عسى منيةٌ قبل المنية تنقضى فيرشف ثغر الثغر طرفى إذا رنا

سألتك يا رباه عُوْرا فجد به وجاز بخير من دعوت فأَمَّنا (١)

❁❁❁

ومم يصور ذمه للشيب، وتألمه من زوال فترة شبابه قوله فى فاتحة قصيدته النونية، فى مدح الخليفة " الحافظ ":-

لأَغرْوَ أن رَحَل الشبابُ وبَانَا ما كان أولَ من صَحبتُ فَخانَا

فكذا عهدتُ الدهرَ منذ عرفته والمالَ والإخوان والخُلانَا

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٣٠٦.

ما كنتُ أحَسبُ يا شبابَ زيادتى　　　بالشيب تُوجَب بعَدك النقصانا

أحسنتَ مُبتدئا وسُؤت مُعقبا　　　ببياض شيب ليته ما كانا

قد كنت أستجفى النوائب آنفاً　　　والآن أصعبُها بقربك هانا

ما الشيبُ للإنسان إلا غايةٌ　　　فيها يَزمُ الهُو عنه عنانا

كم جريتُ مع الصبا فى حَلبةٍ　　　ولزمت فيها ذلك الميدانا

حتى سبقت السابقين لشأوِها　　　وحويت أوطارا وحُزَّتُ رهانا

وَقنصت مقتصى بمثل نباله　　　حتى تساوى فى الهوى قلبانا(١)

استطاع الشاعر أن يصور ألمه وحسرته على شبابه الذى رحل، وما كان يظن أن شبابه الذى رافته وصاحبه سنوات طويلة سيرحل عنه ويخونه ويتركه ويفترق عنه، وتتلاحق حسرة الشاعر ويجسدها لنا فى خيانة الشباب والخيانة التى لاقاها من الإخوان، والمال، والخلان، فقد عهد تقلبات الدهر حتى صارت معهودة له، ويتحدث شاعرنا عن شبابه الذى ابتدأ معه بداية حسنة، وانتهى بنهاية حزينة عادت على شاعرنا بالبؤس والشفاء، وخاصة عند ما زحف المشيب على رأسه وبانت علامت الشيب واضحة عليه، ويتذكر فى شبابه أيام لهوه وصباه، واستخفافه بالمشاكل التى كانت تواجهه، ولكن اختلف الحال فى مشيبه وتبدل، ويذكر أن الشيب هى غاية كل شباب ومنتهاه، فيها يكف المرء عن لهوه، ويكون هناك كثيرا من الموانع والقيود على تصرفات الإنسان، فما كان يفعله فى شبابه لا يفعله فى مشيبه، ويتذكر ذكريات شبابه،

---

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٣٠٦.

وما كان يفعله من سباق، وجرى، ولهو، ومرح.. ويتحدث فى نفس مقدمته عن حبه أيام صباه إذ يقول:-

والحبُّ يأمرُ والصَبابةُ بالذِي ... عنه المروءة والتقى تَنْهانَا

إلا حديثا مثل ما سَرت الصَّبا ... سَحْراً تُنّبهه زاهرا رَيَانا

والطيرُ مطربةٌ كأنَّ حنينها ... سلبَ الغريضَ ومَعْبَد الألحانا

يا من مضى فاعْتضتُ عن أيامه ... أوْفى نظامِ المدحِ فى مَوْلانَا

أجاد شاعرنا فى تخلصه من المقدمة حتى وصوله إلى موضوع القصيدة الأصلى وهو مديحه للخليفة الحافظ، فذكر أن خير من يعوض شبابه الذى ولى بما فيه من ذكريات جميلة من لهو، ولعب، وحب، وصبابه، هو مديحه للحافظ الذى وجد فى قربه له ما يعوضه عن ما فقده فى شبابه إذ يقول:-

يا أهلَ بيتِ الوحى أما مدحُكم ... مَعْ فَرْطِ دُرْبَتنا فَقْد أعيانا

تتنافسُ الفصحاء فيه وفَضْلكُم ... أحْلى وأفصحُ مَقُولا ولِسَانا

سِيما أبو الميمون أنَّ صفاته ... أعْيَينَ قسُّ وأفحمتْ سَحْبانا

أخلاقُه نبوية عَلويّة ... حسنية أعظم بها من شانا

حسناتُ منظرهِ كمخبرهِ فَقْد ... ساوت محاسنُ سرهِ الإعلانا (١)

۞۞۞

ولعل مقدمة قصيدته " البائية " فى وصفه للإسكندرية، وحديثه عن ذكرياته فيها هى أروع ما حَبرَّت ريشته من لوحة فنية فى بكاء الشباب إذ يقول:-

(١) ديوان ظافر الحداد – صد ٣٠٨.

عسى يُدْينكَ يا بلدى إيابُ وهَبْ ذانمَّ لى أين الشبابُ
لحا اللهُ النوى فأخفُّ شيءٍ يكايده الفتى منها عَذابُ
أحادثُ فيك أحداثَ الليَالِى حديثاً طَالَ أَكْثَرهُ عِتابَ
وقَدْ كَانَت إِذا اعْتَذرَتْ أجابتْ فَزَال العذرُ وانْقَطعَ الجوابُ
وبى أسفٌ لَهْ فى كل عُضْوٍ وأَخْفى شعرةٍ منى شهاب
عَدمتك والشبابَ فلَو دَهْتنى مصيبة واحد سهُل المُصاب
فَمالِى منكما أبدا بديلٌ ولا بلدٌ يَنُوبُ ولا خِضاب
ولكن بالشباب الغض شيبٌ أُكَابِدُه وبالوطنِ اغْتَراب (١)

بدأ الشاعر مقدمة قصيدته عن رجائه العودة مرة ثانية إلى بلدته الحبيبة الإسكندرية – التى عاش فيها شبابه الغص، ولكنه يتبع هذا الترجى بكونه وقد حقق ما كان يرجوه من عون لبلده فلن يرجع شبابه الذى ولى وولت معه أيام لهوه وصباه، فإن أخف ما تتركه النوائب هى الأحزان التى يكابدها الإنسان فى حياته، والعذاب الذى يعيش مرارته، ويتحدث الشاعر عن شبابه الذى ولى، وهو حزين على رحيله بل إن كل عضو من أعضائه حزين عليه، ويزاوج الشاعر بين مصيبته فى شبابه الذى رحل، وبين بعده وغربته عن بلدته الإسكندرية، فالمصيبتان واحدة، ووقعهما على الشاعر واحدة، فحزنه على شبابه يقابله حزنه على فراقه عن بلدته، وقد أثقلت المصيبتان كاهل شاعرنا، ويقول لو دهتنى واحدة منهما لسهل مصابه، ويجزم بأن ليس لواحد منهما بديل عن الآخر فلا غربته تنوب فى الحزن عن شبابه الذى رحل، ولا شبابه ينوب

(١) ديوان ظافر الحداد.

عـــــن فراقـــــه عـــــن بلدتـــــه، فكـــــل مـــــنهم لـــــه حدثه، ومصابه، وحزنه، وألمه، ومراراته فهو يكابد ألم الشيب الذى لا يعوضه خضاب، وألم الغربة الذى لا يعوض حديث عن الذكريات.

ويحسن الشاعر التخلص من المقدمة إلى الموضوع الأصلى للقصيدة إذ يقول واصفاً بلدته الإسكندرية:-

أإخـوانى بـذاك الثَّغـر عِنـدِى لكـم وُدٌّ يـروق فـلا يُشـاب

رَسَـا تحـت الثَّـرى وعلـى الثُريـا فـدونَ ثَباتـه الشُّـمَّ الصِـلّاب

أؤمـلُ أَنْ تقربنـا الليـالى وآيسُ حين يُعجزنى فى الطِلاب

سأدعو الله مع سَرف المعاصى فَقَدْ تَدعُو العُصاة وقد تُجاب

علـى تلـك الـديارِ ومَـنْ حَوتهَـا سـلامٌ كالسـلامة يُسـتطاب

يكـرره لسـانى بـل كتـابى بَـل الأيـامُ إنْ دَرَس الكتـاب

❁❁❁

وهذه مقدمة فيها مطارحات بين الشباب والشيب، ذكرها الشاعر فى قصيدته البائية فى وصفه لمدينة " الفسطاط " ومديحه للأفضل.

.. فقد تناول فيها الشاعر موضوعين :الوصف، والمديح،وقدم لهما بمقدمة عن الشيب .

ويقول فى الأبيات التالية من المقدمة:ـ

بـدا شـيبه قبـل ابتـداء شـبابِه وولَّـى الصَّـباعنه عقيـب اغترابـه

وما حان وقتُ الشيب منه وإنما لـه علّـةٌ مِـنْ وَجْـدِهِ واكتئابـه

فـدام طبيعـىُّ السـواد بشـعرِه دَوْام مشـيبٍ تَحـت زُور خِضَـابِه

ومن خامرتْ خمر الهوى كأس لُبه فإن نجومَ الشيبِ بعضُ حبابه

ولما طَمَى بحرُ الغرام بقلبه طفا زَبَدٌ فى فَرْقِة من عُبَابِه

حَذِرْتُ الهوى مذْ كتُ حتى استفزنى بوجهٍ كأنَّ الشمس تَحَتَ نِقَابِه

وقد كتب الحسنُ اسمه فَوق خَدَّه ولم يَبْد إلا نُونُه مِنْ كتابه

وقد أطلعتْ أزرارهُ الشمس فى الدُّجى ومادَ النَقا بالغض تحتَ ثيابه

وما عجبى من روضة طلها الندى على خده لم تحترق بالتهابه [1]

وهكذا عقد ظافر تلك المفارقة الطريفة بين الشيب والشباب مما أدخل على نفس الحزن والكآبة، فدبيب الشيب وزحفه عليه، إعلان بتولى أيام الصبا وترك اللهو والمرح ولذا نجده ينكر هذا الهجوم من الشيب عليه ويفصح أنه ما حان وقته، وحتى ولوحان فإن سواد شعره سيدوم، ولكنن يتيقن أن الحقيقة لابد وأن تظهر وأن الخداع لا مفر منه، حتى ولو شرب الإنسان ما ينسبه حقيقة أمره، فإنه سرعان ما أفاق على تلك الحقيقة التى لا جدال فيها ولا هروب منها، ويسترسل شاعرنا فى حديثه عن صفات محبوبته التى هام بها عشقا ولم يستمع إلى من حذروه من الهوى.

.. ويتحدث شاعرنا فى الأبيات التالية من المقدمة عن وصفه للفسطاط وحنينه إليها، وذكرياته القصيرة فيها.

ويبدو أن هذا الحديث غريباً.. لأن شاعرنا دائما وأبدا فى كثير من قصائده يتحدث عن الإسكندرية وذكرياته ومراتع لهوه وصباه فيها، أما حديثه عن الفسطاط فكان قليل، وإننى أرجح أن هذا الحديث قد ذكره أثناء رحلته

(١) ديوان ظافر الحداد صـ ٣٥.

الأولى من الفسطاط إلى الإسكندرية وبقائه فترة فيها ومن هنا وجدنا إحياء الذكرى فى ذهنه، وحديثه عنها، ووصفه الدقيق لبعض الأماكن فيها.

إذ يقول:–

كَمْ لِى عَلَى سفح المقطّم وقفةٌ ... لهــا أثــرٌ فــى وَهْــدِهِ وهِضَــابه

فَضَضنا بها سِلْكَ الحديثِ فخلْتُه ... يَميــد بنــا زَهْــوا لطيــب عنابــه

وفى البركة الغنَّاء للطَّرف مَسْرحٌ ... نَهى ما انْطَوى من جفنه عَنْ مآبه

يبلغنا عن زَهْرِها وافدُ الصَّبا ... سلاماً تَولَّى المسكُ رَدَّ جوابِهِ

وينسلُّ فى سَاحَتِها كلُّ جَدْولٍ ... كَما سُلَّ مَطْرُور الشَّبا مِنْ قِرابِهِ

تناول شاعرنا فى الأبيات السابقة وصفاً دقيقاً لبعض المعالم البارزة فى الفسطاط والتى لا تمحى من ذاكرة كل من زارها، وارتادها.

ومن هذه الأماكن، المقطم، وهضبته، والبركة الواسعة الغناء وقد حُف بها الزهر والرياض من كل جانب فيها، ويتذكر شاعرنا رائحة الزهر التى لا ينساها فهى أشبه برائحة المسك، ويحدثنا عن جداول المياه فيها وهى تنسل وتنحدر من ينابيعها العذبة الرقراقة.

.. ويحسن شاعرنا التخلص من المقدمة الطويلة حتى يصل إلى الموضوع الأصلى للقصيدة وهو مديحه للأفضل وما يضيفه عليه من صفات عديدة، إذ يقول:–

ولما حبانِى الدهرُ منه بعودةٍ ... وراجَعَ حَظِّى بعَدَ طول اجتْنَابِه

وهبتُ لقُربٍ سَرَّنى بنعيمه ... جنايةَ بُعْدٍ ساءنى بِعقابِه

فإن كنتَ فى مصرٍ غَرِيبَا فَجُلُّ مَا ... ينالُ الغريب العزُّ عند اغترابه

وردتُ بهـا بحَـرَ النـوال مُشْـرِقا وغــرَّب غَيْــرى آمــلاً لسَــرابه

فأصبحتُ فيهَا خَادمَ الأفْضَل الذى زَحَمــتُ ملــوكَ الأرضِ تَحــتَ ركابِــهِ

زرت كفه اليمنى على الغيثِ فانثنت بــه خَجْلــةٌ عَــنْ مِصْــرَ بَعــد انْسِــكَابِه

رأى الشـاعر فـى ختـام مقدمتـه ووصـولاً بهـا إلـى الموضـوع للأصـلى للقصـيدة أن يصـور ويبـين عزبتـه التـى عاشـها فـى مصـر، فعلـى الـرغم مـن معاناته لآلامها إلا أنه نال منها ما كان يتمناه من مال وعطايا وهبات، ومن تقدير وإعجاب بشعره، جعلته مقرباً إلى الخليفة " الأفضل " الذى كان يتسابق إليه كل الشعراء، ويفد على بابه كل الوفود لينالوا من فضله وكرمه وعطائه، إذ يقول عن فضله:-

كَسا الفضلُ فَضْلاً حِينَ أضحى سَمَّيه ومَــتَّ إلــى أَفعالــه بانْتســابِه

له قلمٌ يستخدم السيفُ والقَنا وتُغْنِــى وُتَفْنــى فطــرٌة مــن لُعابِــه

جمعت فنون الفضل فاخترت كل أن فــردت بــه مــن لُبــه ولبابــه

۞۞۞

وهذه مقدمـة عن " المشـيب " لقصـيدة يتحـدث فيهـا الشـاعر عن بلدتـه الإسكندرية وذكرياته فيها، وحنينه إليها، وأمنياته فى الرجوع إليها، ذاكراً غربته وما لاقاه فيها، وما عاناه من فراق وبعد عن رفاقه وأحبابه.. إذ يقول:-

سَــدّ هــم المشــيب قلبــى فضــاق عــن الصــغائر بالكبــار

فــوا عجبــا مــن فرحــى بليلــى ومــن أسـفى علــى ضــوء النهــار

جرت نقط المدامع من جفونى علــى نقــط لشــيب فــى عــذارى

وزادت هـــذه لمزيـــد هـــذه فأصـــبحتا بحـــارا فـــى بحـــار

وقائلـــة وقـــد نظـــرت إليـــه فكـــادت أن تبـــادر بـــالفرارِ

أشيّب ما بدا بك قلت لا بل هـو الملبـوس مـن حُلـل الوقـارِ

وجاريـتُ الأسـى طلقـا فأبـدى بفرقـى مـا رأيـت مـن الغبـار

فولـت وهـى هاربـة وقالـت تَيَيَّـب لاعتـذارك فـى اعتـذارى

إذا مـا الشـيبُ نـوَّر فـى عِـذار جفتـه كـلُ غانيـةٍ نـوار (١)

تحدث الشاعر فى هذه المقدمة عن مشاعره وأحزانه وما عاناه من همَّ وخوف عند زحف الشيب على رأسه، ويصور ببراعة ومقدرة أن هذا الهمَّ قد أعجزه عن تصديه لصغائر الأمور قبل كبارها، فشعوره بالكبر قد ضاعف أحزانه وآلامه، وقد كثرت هذه الأحزان فى نفسه حتى ضاق صدره.

ونجده يتعجب فى حسرة ولوعة من قدوم الليل عليه ويقصد به مشيبه، ومن زوال ورحيل النهار عنه ويقصد شبابه الذى راح ويجسد الشاعر هذا الألم والحزن ببكائه على ما فقده من ذكريات جميلة فى شبابه من لهو، ولعب، وصبابه فهو يبكيها، ويبكى مشيبه الذى قدم وزحف مسرعاً عليه، فاجتمعت دموعه التى بكاها على شبابه الذى راح، ودموعه على شيبه الذى قدم، فزادت هذه مع هذه فصارت كأنها بحاراً من الدموع وليست بحرا واحداً لكثرتها وغلبتها على مياه البحر.

ودائما ما نجد شاعرنا – يربط بين مشيبه وبين قلبه الذى يتعلق بهوى النساء اللآئى صادفهن فى حياته، فلم يعلق قلبه بامرأة معينة شغلته بحبها وعشقها فكان حديثه يدور فى امرأة أىّ امرأة من النساء، قد استهوته، وتعلق

(١) ديون ظافر الحداد – صـ ١٤٦.

قلبه بها، ثم تشغله امرأة أخرى، وإن هذا لا يعنى أن شاعرنا كان يعيش فى حياته متنقلاً بقلبه وعواطفه بين النساء، ولكن ككل رجل وككل شاعر رقيق فى مشاعره، غزير فى عواطفه يأثره جمال المرأة، فيتعلق قلبه، وتملأ مشاعر الحب نفسه، ولهذا نجده يتحدث فى هذه المقدمة عن امرأة قابلته، ولم تعهد فيه إلا القوة والهمة والشباب، فعندما رأت الشيب زاحفاً على رأسه فزعت، وجزعت وصور جزعها بمبادرتها بالفرار منه، كأن هذا الشيب حيوان متوحش كاسر مخيف إذا رآه الإنسان سرعان ما يفر ويهرب من مكانه خوفاً منه، ولم يكتف الشاعر بالفرار بل أعقبه بحديثها الذى وقع فى نفس الشاعر موقعاً مريراً تجرع مرارته فيه وحزته عندما صرحت بالشيب الذى رأته زاحفاً عليه وقالت: أشيَّب وتتعجب من إنكار شاعرنا ما رأته وبدا واضحاً، وذكر أن ما به ليس شيب بل هو الوقار وما رأته هو علامة من علاماته.

ويستمر الشاعر فى سرد ما حدث بينه وبين هذه المرأة التى ولت هاربة خائفة من شيبه وعجزه وكبره، واعتذرت عن مداومة هذا الوصال الذى منى الشاعر به نفسه، ونراه يختم هذه المقدمة بالبيت الأخير الذى يعلق فيه خلاصة قوله عن الشيب إذ يقول إذا الشيب زحف وأعلن قدومه وبدا ظاهراً واضحاً خافت منه النساء وولت هاربه فلا يجتمع الشيب مع الهوى، كما لا يجتمع الربيع مع الخريف.

والمقدمة كما نرى متلاحمه مع موضوع القصيدة تلاحماً وثيقاً، صور فيها شاعرنا، تمازجاً واضحاً بين حزنه على شبابه وحزنه على غربته وفراق موطن إذ يقول فى ختام قصيدته:-

لو أنى أرقت جميع دمعى وأطلقت الدعاء بلا اختصار

لأصبح قوتها طوفان نوح يحل عن السواحل والقرار

ولكن لكل مُرْ تجزٍ عزيز يفيضُ على السَوارِ

إلـى أن تُصْبح الهضـابُ فيهـا   معطـــرةَ المــــلاءةَ والخمــــار

فَـوا أسـفاَه أَنْ فَقَـدتَ حَيَـاتِى   ولـم يَـدن الزمـان بهـا مَـزَ ارِ

علـــى أنـــِى أؤملُهـــا ومـــا لـــِى   سِوىَ صبر يسيرُ فى إِسارِى [(١)]

۞۞۞

وهكذا تنوعت مقدمات القصائد فى ديوان " شاعرنا " وأخذت أنماطا عديدة واتجاهات متباينة، فكان منها مقدمات غزلية لموضوعات مدحيه ومقدمات عن المشيب وبخاصة شكاية شاعرنا منه، وصولاً إلى الموضوعات الأصلية للقصائد من مثل الحنين إلى الوطن، والمديح وغيره.

وهناك من القصائد فى ديوان ظافر ما بدأه بالغرض الأصلى كالمدح أو غيره، إلى جانب بعض القصائد التى استخدم فيها المدح مقدمة للوصول إلى الموضوعات الأخرى من مثل مقدمته المديحية لقصيدته الدالية التى يشكو فيها الشاعر من ضيق حاله إذ يقول:–

إن الخلافـةَ مـا اصـطفْتك لِنفْسِها   حتـى اخْتُبِـرت لكِـل أَمـرٍ يُحِمـد

فاشـتقَّت الألقـابُ فيـك لأِنْهَـا   وصـفٌ جميـلٌ فـى صـفاتٍ تُوجـدُ

فـدعتك بالمـأمونِ وهـى جبلـةٌ   ممـــا يُثبتهـــا لـــديك المُولِـــد

تـاجُ الخلافـة وهـو تـاجُ فَضَـائلٍ   تَقْضـىِ الجـواهرُ دُونَـه والعسْـجَدُ

فَخُـر الصَّـنائعِ أىّ فخـر صِـبغة   أبـداً عَلـى طُـولِ الْمَـدَى يَتَجـدَّدُ

وإذا وجيـه الملـك قيـل فإنـه   وَجَّـه لـه مـن كـل فضـلٍ مُسـعِد

(١) ديوان ظافر الحداد – صد ١٤٨.

نعم الذخيرة أنت للأمر الذِى ينجُو أمير المؤمنين ويقصد

يزهى به التشريف والخلع التى حَلَّت وجوهر طرفها المتوقد (١)

استطاع الشاعر أن يثبت مقدرته الإبداعية فى مديحه للوزير المأمون فذكر فى صدر مقدمته، أن الخلافة، بكل ما تحمله من سلطة وجاه ونفوذ قد أحسنت اختيارها له، كم يختار لكل أمر هام وخطير من يكون قادرا على تحمل هذا الأمر، ويذكر شاعرنا بعض الألقاب التى خلعت على ممدوحه فكان يلقب بالمأمون وهى صفة حميدة كانت فيه وكان أحق أن يلقب بها منذ مولده فهون مأمون فى خلقه، ولقب بتاج الخلافة وهو تاج فيه كثير من المزايا والفضائل، ولقب بتاج الفضائل، ولقب بفخر الصنائع، وقد مثله شاعرنا بالذخيرة التى فيها حماية لأمير المؤمنين.

ولا يكتفى شاعرنا بتعداد مدائح المأمون، من ذكره لصفاته وتعدد ألقابه إنما وجدناه يذكر نتيجة ما فعله مع الرعايا من أمور كثيرة محمودة ونجده يصور شعور هؤلاء الناس قائلاً.

ما خاب فيك دعاؤنا ورجاؤنا والله يَعْلَمُ ما نقول ويشهد

كم من قريح القلب فى ظلم الدجى ودعاؤها لك دائم يتردد

وضعيفة تحنو على أطفالها فلهم نوالك كل وقت يُورد

ومكرر الزفرات فى مِحْرابه يقرأ ويركع للإله ويسجد

أو ليته برافأ فأخْلَصَّ دعوة نجحت وأنت بها المجيد الأسعد

فأبشر فهذا بعض ما ستناله إن الذى يأتى أجلُّ وأرعدُ

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٨٤.

استطاع شاعرنا أن يرصد التوقعات التى صدرت من أفعال ممدوحه ويبين أثرها ونتائجها، ومن هذه النتائج، الدعاء له، والشكر والتقدير ويحمد الله على أنه فرج كرباتهم، ويسر ضيقهم وعدل من حالهم، ويبشره شاعرنا بأنه سينال خيرا كثيرا جزاء ما قدمه.

ويختتم شاعرنا مقدمته المديحية بهذين البيتين إذ يقول:–

شمل الورى فضلان منك ونعمةٌ   أسـديتها أور منـة تتقلـدُ

مـن يـزرعِ المعـروف زرعـك للنَّـدى   لا شـك مثل حصيد سعدك يَحْصُـد

وقد أرد شاعرنا أن يأتى فى نهاية مقدمته بحكمة يكون " المأمون " مثلاً لها ويجعل منه رمز للعطاء، ومنارة للخير.

وبهذين البيتين نجح شاعرنا فى الوصول إلى الموضع الأصلى للقصيدة وهو " الشكوى " إذ يقول:–

مـولاىّ قَـدْ أوليـت عبـدك نعمـةً   فلـه عليـك بهـا ثنـاء سـرمد

والآن قـد أضـحت حواشـى حالِـه   هـدبا فـلا ترقـى ولا هـى تُعْقَـدُ

وتكـاثر الأطفـال فـاق تجلـدى   لكننـى كـم قـدر مـا أتجلَّـد

فكأننـا لبكـائهم فـى مـأتم   طـول الزمـان ومـا لنـا مـن تفقـد

وتعُّـذر الجـارى أضـر بحـالهم   وأضَـرَّ بـى وهـو القليـل الأنكـد

فاقصـد مسـرتهم فتلـك غنيمـه   فثناؤهـا وثوابهـا لا ينفـذُ (١)

---

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٨٦.

ونلاحظ أن الشكوى التى أوردها الشاعر فى هذه القصيدة إنما هى شكوى ذاتية يتكلم فيها عن نفسه، ويعبر من خلالها عن ضيقه وتعسر حاله، مع كثرة عياله.

❁❁❁

وتتنوع قصائد الشكوى فى ديوان شاعرنا، فتارة تكون شكوه من كثرة العيال وضيق الحال، وتارة تكون من الزمن وتقلباته، ولكن الأغلب هو شكواه من كثرة العيال وضيق الحال، ولعل مبرر هذا هو عدم استقرار شاعرنا وتنقله الدائم بين الإسكندرية والفسطاط، حتى استقر به المقام فى الفسطاط وهذه مقدمة مديحية لقصيدته التى يشكو فيها حالة إذ يقول:-

عليك ثناءُ العالمين فصيح وفيك ولاء العارفين صحيح

تبرعت بالإحسان للناس كلهم فحبك فى سر القلوب صريح

لقد جُدتَ حتى إن حاتم طئ مضافا إلى جدوى يديك شحيح

أفى العدل أن أظمأ وجودك فى الورى يسح على طول المدى ويسيح

على أن لفظى فيك بالمدح ذائعٌ وقلبى بأصناف الدُعاء قريح (١)

استطاع الشاعر فى هذه المقدمة القصيرة أن يعبر ببراعة فنية، ومقدرة شعرية عُرف شاعرنا بها أن يجلب الكثير من الصفات الحسنة على ممدوحه وكانت أولى هذه الصفات – ثناء الناس له، واعترافهم الصريح بكرمه وجوده وثانيها عطاؤه الفياض الذى فاض على الناس، ففاض الناس بحبهم له وثالثها عدله الذى روى به ظمأ المظلومين وينهى الشاعر هذه المقدمة المديحية بهذين البيتين إذ يقول:-

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٦٩.

ولـى حاجـة يَرَّضَـى الله بهـا أولا وفيهـــا ثنـــاءٌ شـــائعٌ ومـــديح

فعاجلهـا حمـدَّ وشـكر مكـرر ومتجَرُهـــا يـــوم المعـــادِ ربـــيح

ويحسن الشاعر التخلص من المقدمة، إلى الموضوع الأصلى للقصيدة إذ يقول:-

فلى عَيْلة عشر وجارىَ خمسة وبـــاطن أحـــوالى بـــذاك قبـــيح

وأحـوالهم فـى فـرط عُسـر وضـيقة ولـــيس لهـــم إلا نـــداك مُـــريح

وفضـك إن سـاوى الحسـابين إنهـا لعاداتـــك اللاتـــى بهـــن تـــريح

عسـى عَزمـه يَحْيـا بهامنـك آمِـلٌ مـــريضٌ بأحـــداث الزمـــان جـــريح

ونرى هذه الأبيات توضح حال شاعرنا، وما هو عليه من بؤس وضيق، فذكر كثرة عياله، وعيال جاره، وما هما بحاجة إليه من فضله وجوده وكرمه وعطائه.

ونستبين من هذا أن شاعرنا لم يتفرد بشكايته، ولكنه جعلها فى المرتبة الثانية الدارجة فى قصيدته، فسبقها بالمديح وأعقبها بالشكوى التى كان يجد فيها الكثير من الاستجابة من قبل الممدوحين.

۞۞۞

وهذه مقدمة مديحية لقصيدته الميمية التى يشكو فيها دهره وزمانه وسوء حاله. ولظروف العصر الاجتماعية، والسياسة أثر كبير فى شكاية شاعرنا إذ عم فى الاضطراب البلاد وسوء الحال إذ يقول فى المقدمة:-

أحيـا لـه الله مـن أحيـا الأنـام بـه عمـــرت يجـــدده التأييـــد والقـــدم

الأفضـل الملك العدل الذى عظمت أفعالـــهُ ولهـــا يســـتحقُر العظـــم

يخرُّ ذو المُلْكِ من تذكاره رَهَبا من السرير ويفنى خوفه البُهم

أحيا مناقبه طيب الثناء بما أوْلى وأخبارُ أملاك الورى رقم

يُعطى إذا نجلوا يَدرى إذا جهلوا يأوى إذا رفضوا يبنى إذا هدموا

فاختاره الله واختارتك همته الـ ـعُليا التى عجزت عن بعضها الهمم

يا من إذا أخاف فوْتاغيرُ آمِله من مطلبٍ فله من قصده كرم (١)

استهل الشاعر مقدمة مدحته لقصيدته فى شكاية الدهر، وقد بدأ هذه المقدمة بذكر الممدوح والتصريح باسمه وهو – الأفضل " وعَدد من صفاقه فهو الخليفة العادل الذى عظمت أفعاله وأعماله حتى خلت كل الأفعال الأخرى صغيره وحقيرة، ومن صفاته العظمة والرهبة، وهيبة الملك التى يقع أثرها فى النفوس حتى الحيوانات تخافه وترهبه ليس لشدتد وإنما لأفعاله وأعماله التى تضفى عليه أبهة الملك وسطوته وهو المعطاء بلا حدود فإذا بخلوا أعطى، وهو العارف بالأمور، فإذا جهلوا علم، وهو المؤسس لأمور الدولة، فإذا هدموا بنى.

وقد اختاره الله خليفة عدل لهذه الدولة كى يصلح من شأنها، بعد أن عجز عن إصلاحها ذوى الهمم، ويختتم مقدمته بقوله :

إليك أشكو زمانا ظل حادِثُه يعدو على حِطّىَ الواهى وينتقم

وقد تمادى على ظلمى وأنت له مولى وجودك فيما بيننا حكم

وحق ما فيك من جود ومن كرم فما يُشاب بحنثٍ ذلك القسم

❁❁❁

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٢٧١ وما بعدها.

وكثرت شكاية شاعرنا من الغربة والحنين إلى وطنه – الإسكندرية – ونظم العديد من قصائده تحدث فيها عن آلام الغربة، وهو بعيد عن أهله ورفاقه، وقد استهل هذه القصائد بمقدمات متنوعة.

وهذه مقدمة وصفية طويلة لقصيدته الدالية التى يتحدث فيها شاعرنا عن الغربة وحنينه إلى الوطن، إذ يقول:-

يا حبذا ذاك الخليج الذى له ... من الحسن ما يلهى عن الشرب وارد

وقد راق لما رقَّ عذبُ زُلاله ... فأصبح ملأن الموارد زائد

ترى منه تحت الريح دِرْعاً وجْوشنا ... وسيفا بلا غمد إذا كان راكدا

كأنَّ لصَّبا لما أثارت حَبابه ... تُمرُّ على سيف حديد مباردا

ترى جاورت أرض السوارى فرائِدٌ ... من القطر عادت فى النبات فرائد

منابت أزهار يكرر نشرها ... على القطر شكرا ذائعا ومحامدا

تخط يد الأنواء فيها صحائفا ... فينشدها راوى النسيم قصائدا

فلله ذاك الوض للغيث مادحا ... ولله ذاك الغيث للروض رافدا (١)

وفق شاعرنا فى وصفه للإسكندرية وصفاً دقيقاً، حيث تناول فى وصفه لها أماكنها، ورياضها، وخليجها، وبساتينها، وأزهارها، وهواءها وغيثها الفياض على منابت زرعها وزهرها، وقد أطال شاعرنا فى هذه المقدمة حتى بدت المقدمة أطول من الموضوع الأصلى للقصيدة.

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ٩٤.

وأرى أن هذا راجع إلى نفسية شاعرنا، وارتباطه ارتباطاً وثيقاً بوطنه حتى بعد إقامته فى الفسطاط، فإن شوقه قد استولى عليه إلى الإسكندرية وملك عليه أقطار نفسه، واستبد بتفكيره كله، ويمكننا القول:

بأن ظافرا لم يبلغ استغراقه فى وصف أى موصوف آخر مبلغه فى الإسكندرية وقد استمر شاعرنا فى وصفه للإسكندرية حتى تخلص من مقدمته إلى الموضوع الأصلى للقصيدة وهو شكايته ببعده عن بلدته إذ يقول مصوراً رحلته إلى الفسطاط .

رحَلتُ إلى الفسطاطِ عَنْهَا بغرَّةٍ فَهَا أَنَا فى قيدِ النَّدامةِ واَجِدَا

كآدم والشيطانِ لما اسْتَنَّزله عن الخُلَّدِ للدنيا الدَّنية حَاسِدَا

فها أنا باكٍ مثلَ ما كَانَ باكياَ مُكابِد ما كَانَ قبلى مُكابدا

أسيرٌ اغترابٍ واشتياقٍ كَأَننِى أصارع أُسْدا منهما وأَساوِدَا

.. نلاحظ تلاحم مقدمة القصيدة بالموضوع الأصلى، وأن كلاً منهما مكملاً للآخر، فقد تناول فى المقدمة وصفا دقيقاً للإسكندرية، أما موضوع القصيدة، فقد تحدث فيه عن رحلة العذاب والشقاء التى عاشها فى الفسطاط، هذه البلدة التى عاش فيها فترة مشيبه، فوجد فى عيشه العذاب، والحزن، والشقاء، والاغتراب، وظل فترة وجوده فيها يكابد ويصارع حتى يتواءم عيشه فيها، ويستقر مقامه بها.

وتتجلى قصائد شاعرنا وهو يتحدث فيها عن بلدته الحبيبة الإسكندرية – البلدة التى عشقها وعاش فيها أجمل فترات حياته، وارتبط بها ارتباط المحب بحبيبته، وتغزل بجمالها، وبكى لفراقها، وتمنى العودة إليها.

❁❁❁

وهذه قصيدة مقدمتها وصفية، تحدث فيها الشاعر عن غربته وأمانيه فى العودة إلى الإسكندرية. إذ قول:–

ومَرتْ على ماءِ الخليج بُسحرةٍ والطير فيها بالغصون وساوس
وفى الطيرِ والدولاب شادٍ وزَامرٍ لَدى شجرٍ تَجلَى بهن العرائس
كأن الرُبا فى الزهرِ والماءِ حَوْلها قلانسُ وَشيٍ حَولَهُن طَيالِس
كأن بياض الماءِ فى كلِ جَدولٍ نَصولُ سيوفٍ أَخْلَصتْها المداوِسِ
كأن نبات النرجسِ الغضِ إذ بدا شَراريبُ خضرٌ فَوْقَهنُ كبائسُ
ديارٌ لبستُ اللهو فيها مع الصِبَّا فنعمَ الحُلَى فيها ونعم الملابس

استطاع الشعر أن يسترجع ذكرياته فى الإسكندرية، فوصف كل ما فيها من خليجها، وطيورها التى كان يشدو معها أغنيات حبه وهيامه، وشجرها وزهرها ومائها، وصفاء لونه، وعذوبة طعمه، ويصف شاعرنا نبات النرجس بجماله الفتان الذى يجذب الأنظار إليه، ويتذكر دياره التى عاش فيها فترة صباه ولهوه فكانت من أحلى الفترات فى حياته.

.. وينتقل الشاعر فى مقدمته إلى الوصف الدقيق لمرحلة صباه التى عاشها فى الإسكندرية، فقد نعم فيها بحبه، وسعد بلقاء محبوبته وقد عَدَّ هذه المرحلة من أجمل فترات حياته التى لا ينساها.. إذ يقول واصفاً ليالى صباه:-

ليالِي أُعطِي الحبَّ فَضْلَه مقُودَى ذَلولا وعند العُتْب واللوم شامِس
أصيدُ المهَافِيهَن ثُم يَصدْننِى فكلٌ لقلبى بالشبابِ فَرائِس
تساوتْ بنا حال الصَّبابة والصّبا فكلٌ لكلٍ مُشبهٌ ومُجانس
وأوْفى سلاحٍ سالمتنى لأَجْلهِ شبابٌ ومُسْوَدُّ الضفيرةِ نَافِس
فأرشف دار لم يثقبه ناظمٌ ونور أقاح ما نمته المغارس

وأقطف ورد الخد والورد زاهر وألزم غصن البان والغصن مائس (١)

استطاع الشعر أن يصف مشاعره فى فترة شبابه التى عاشها فى الإسكندرية متحدثا عن لياليه، ذاكرا حاله فيها، وهو متنقلا فى هواه، واصفا لمن أحبهن، ومال قلبه إليهن.

.. ويختتم مقدمته – الوصفية – بهذا البيت الذى قال فيه:-

زمان كطيف زارٍ وازور وشكَ ما تصافح جفنا مغرم وهو ناعس

... يتذكر شاعرنا أيامه ولياليه فى الإسكندرية والتى بدت فى مخيلته كطيف زاره وسرعان ما فارق حتى مخيلته.

.. ويحسن شاعرنا التخلص من هذه المقدمة الطويلة إلى موضوع القصيدة إذ يقول متمنيا العودة إلى بلدته:-

وتطمعنى نفسى إليها بعودةٍ على أنه نوع من الظن حادس
وكم رُمت عوداً مرة بعد مرة إليها فيثنى من عنانى حابس
أعلل قلبى بالأمانى طماعة على أننى عند الحقيقة آيس
إذا نام طرف الخلق أرقنى أسى تضرّمه تحت الضلوع الحنادس
لقد كنت فى الإسكندرية فى غنى من القرب لكنى مع البعد بائس
عليها سلامى ما حييت وإن أمت تولته للرَّاوِينَ شِعرى مدارس (٢)

أراد الشاعر أن يعبر عن أمانيه فى العودة إلى بلدته – الإسكندرية – زاعما لنفسه بتحقيق هذه الأمانى، التى باتت تؤرقه فى منامه، فإذا غفل فى نومه ومر بخياله طيف بلدته سرعان ما يتيقظ من نومه، آملاً أن يتحقق ما رآه فى نومه من عودة إليه، ويفصح شاعرنا فى البيت قبل الأخير بأنه كان يعيش

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ١٥٧.
(٢) ديوان ظافر الحداد – صـ ١٥٨.

فى الإسكندرية فى غنى وهذا الغنى هو قربه من أهله ورفاقه وأصدقائه، وهذا القرب كان يبعث فى نفسه الأمل، أما بعده عن كل هذا، جعل فى نفسه اليأس والقنوت، ونجده فى البيت الأخير يدعو لبلدته بالسلام ماحيّا، وإن مات بالراوين لشعره بقرؤنها سلامه وحبه.

❁❁❁

ولقد استوقفتنى قصيده لشاعرنا فى ديوانه، وجدتها تمثل لوحة فنية رائعة يجسد فيها مشاعره وأحاسيسه بمصداقية عرفت عن شاعرنا.

.. وموضوع القصيدة هو " الحديث عن الغربة والحنين إلى الوطن " ويسبق الموضوع مقدمة طويلة قسمها شاعرنا إلى فقرتين :-

الأولى:-

يتحدث فيه عن الاعتذار.

الثانية:-

يتحدث فيه عن المديح.

.. ثم يأتى بعدهما الموضوع الأصلى لقصيدة وهو حديثه عن الغربة إذ يقول معتذرا:-

أُعاتب نفسى فى ذنوب جنيتها ... فيسر وجهى للحياء بَراقع

ولى فى سُويدا قلبك الرحَّب فضلةٌ ... من الودِ تَبْقَى حين تفنى الودائع

وثقت به حتى حدانى لحظة ... من الذنب فيها جَمرُ عينيك لاذع

لك الحسنات الغرُّ عندك كأنها ... جواهر فى جيد الزمان لوامع

على أنَّ لى عذرا إذا ما سَللته ... فلى منه سيف باتر الحد قاطع

أنا المذنب المستوجب العتَّب فاحتكم ... بما شئْتَ إنى سامعٌ لك طَائع

فـلا تخشـى منـى عـن ودادك نَبْـوةٌ فحبـك أوْفـى مـا حَوَتْـه الأضَـالِع (١)

بدأ الشاعر قصيدته بالعتاب والاعتذار، فهو يعاتب نفسه على أى ذنب فعله واقترفه فى حق ممدوحه – الأفضل – ويأمل منه الصفح عن هذه الذنوب والأخطاء، ويوضح الشاعر أن حسنات الأفضل وعطاياه هى جواهر ظاهره متلألأة، وأن هذه الحسنات ناتجة عن خلق كريم وعن تسامح جم، هى صفاته التى يأمل به أن يسامحه ويعفو عنه ويصرح شاعرنا بذنبه ويحتكم لممدوحه ويستمع طائعا مرضياً بحكمه وأن هذا الحكم مهما كان فيه من قسوة أو غلظة عليه فإنه لن يزعزع حبه ومودته إليه.

.. وينتقل شاعرنا إلى الأبيات التالية فى المقدمة، وفيها يتحدث عن مديحه للأفضل إذ يقول:-

أَبَا الفضلِ أنت الفضلُ ذاتاً فإنْ تكن مَعَـانيِ شـتى فهـىَّ مِنْـكَ طَبـائِع

إذا لـم يُـدْركنى رضـاء بلطفِـه فـإنى لنفسـى بالندامـةِ بَـاخِع

وإنـى لأبكـى سـالفاتٍ تصّـرمت لنـا مثـل مـا تبكـى الحمـام السَّـواجع

أنـوح كمـا ناحـت ولكـن مـدامعى تفـيض ومـا تَنْـدَى لَهـنَّ مَـدَامِع (٢)

استطاع الشاعر فى الأبيات السابقة أن يذكر بعض صفات ممدوحة ويعـددها ومنهـا – الفضـل – وهـى تعنـى العطـاء والكـرم والجود، فَهىّ صفته وهى اسمه فإذا كانت هذه الصفة تحمل معانى كثيرة فهى فيه، ومن صفاته أيضاً التسامح والرضا، فهو يتمنى رضاه عنه وإن لم يرض فإنه سيعيش فى ندم وحزن بالغين وسيبكى كل ما بدر منه من أفعال وأخطاء فى حق ممدوحه، حتى يحظى برضاه عنه.

---

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ١٨٧.

(٢) ديوان ظافر الحداد – صـ ١٨٧.

ويحسن شاعرنا التخلص من المقدمة ويصل إلى الموضوع الأصلى للقصيدة ويتحدث فيه عن غربته عن بلدته، وحنينه إليها إذ يقول:-

ومن نكد الأيام فرقة موطن نأى فنأى عنه الصديق المطاوع

ولاسيمّا أرض كأرضى وأسرة كقومى وعيش مثل عيش يافع

ثلاث إذا عددتها لم يكن لها على صحة التقسيم فى الفضل رابع

سرور ولذات صفت من كبائر نهتها النهى عن قربنا والشرائع

خلت هذه الآثار منى وما خلت لها من جنانى فى التسويداء مواضع

فيا أهل ودى هل لمن بان عنكم إلى عودة فى مثل ما كان شافع

فلى بعدكم شوق أثار تأسفنا يصغر عندى كل ما أنا صانع

عيكم سلاما تقتضيه سلامة له تبع أمثالها وطلائع (١)

وفق شاعرنا فى أن يرسم صورة رائعة جسدها فى هذه الأبيات، وهو يتحدث عن غربته، وما جرته هذه الغربة عليه من آلام، وأحزان، ففراقه عن موطنه عزله عن عالمه السعيد، فكان فراق عن الأهل، والأصدقاء ولاسيما فراقه عن أرضه وهى ليست ككل الأراضى، وفراقه عن أسرته وهى ليست ككل الأسر، وفراقه عن قومه وهم ليسوا ككل القوم.

.. ويختتم الشاعر قصيدته وهو يتحدث عن شوقه فى عودته إلى بلده مهما تعدت المسافة بينه وبينها، فإن لهفته، وشوقه، ورغبته فى العودة إليها، يقصر كل هذه المسافات، وإن ما تركه هذا الشوق فى نفسه من أحزان وأوجاع لأثر كبير وعميق فى نفسه تصغر عنده غيرها من أوجاع وآلام، ويرسل

(١) ديوان ظافر الحداد – صـ ١٩١.

شاعرنا تحية وسلاما إلى بلدته مؤكدا أن هذا السلام مستمرا لا ينقطع حتى يعود.

... ومن هنا وجدنا مقدمات القصائد فى ديوان شاعرنا أشبه باللوحات الفنية الرائعة، التى رصد فيها مشاعره، وأحاسيسه وانفعالاته، كما كانت مسرحاً للعديد من تجاربه الذاتية، وتعد هذه المقدمات من أروع المقدمات الشعرية فى العصر الفاطمى التى قدم بها شاعرنا قصائده المعروفة فى المديح، والغزل، والوصف وغيره لأنها تمثل مشاعر صادقة، وتصور واقعاً ملموساً، وتجسد رقيّاً ذوقياً عرف به شاعرنا.

.. وقد لمسنا التنوع فى مقدمات القصائد، فكان منها المقدمة المديحية والمقدمة الغزلية، والمقدمة الوصفية، والمقدمة المتضمنة لأنواع عديدة من الشكوى، مثل شكايته من المشيب، ومن الدهره، ومن كثرة العيال وضيق الحال، ومن غربته ومرارة الأيام وقسوتها عليه وهو بعيد عن وطنه.

.. وقد اصطفينا الكثير من قصائد ديوانه التى قدم لها بمقدمات وكان لزاماً علينا أن نلقى الضوء على موضوعية هذه القصائد، ولا تكتمل الصورة المثلى للمقدمات بالدراسة الموضوعية فحسب دون التطرق إلى دراستها فنياً لنتعرف من خلالها على مواطن الجمال والابتكار والإبداع التى عُرفت عن شاعرنا.

مقدمات القصائد فى شعر ظافر الحداد دراسة فنية

تجلت براعة ظافر الفنية والإبداعية فى مقدمات قصائده المتنوعة التى أوردها فى ديوانه، فبدت رؤيته الفنية واضحة جَليّة وخاصة، عندما لمحنا فى بعض هذه المقدمات ما يصور نمطا معيناً فى حياته ونفسيته.

على عكس الشعراء الآخرين الذين قلّمَا وجدنا فيهم من اتخذ فواتحه وسيلة إلى التعبير عن نفسه، ورأيه.

وإننى أرى أن هذا الأمر، يرجع إلى نشأة ظافر بين عامة الناس وممارسته الحياة العملية، وصراعه الدائب الطويل ليحصل على اعتراف الناس – والأدباء خاصة – به أديباً ومن هنا وجدنا شاعرنا معبراً عن نفسه، وعن مجتمعه الذى عاش فيه، فثمة تلاحم وصلة ربطت بينه وبين مجتمعه.

وقد وجدنا.. التعبير والتصريح من جانب شاعرنا عن الآلام والأحزان والأوجاع، وعن الشكوى من تقلبات الدهر والزمن، وعن العزوف عن الدنيا فى مراحل الشيب – منظوماً فى قصائد ديوانه الذى يشبه السجل الحافل الراصد لأدق المشاعر والأحاسيس.

وقد تميزت مقدمات القصائد فى ديوانه بالمعانى الذاتية، والتجارب الشعورية التى عاشها، وما نتج عن هذه التجارب من جوانب إيجابية وسلبية، كما لمحنا فيها رؤيته الفلسفية لأمور الحياة والكون، وقد ظهر هذا فى متطوعاته وقصائده أكثر من ظهورها فى مقدمات قصائده، ومبرر هذا أن التجربة الشعرية التامة :-

هى الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التى يصورها الشاعر حين يفكر فى أمر من الأمور تفكيرا ينم عن عميق شعوره وإحساسه، وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتى، وإخلاص فنى، لا إلى مجرد مهارته فى صياغة القول ليعبث بالحقائق، أو يجارى شعور الآخرين لينال رضاهم، بل إنه ليغذى شاعريته

بجميع الأفكار النبيلة، ودواعى الإيثار التى تنبع عن الدوافع المقدسة وأصول المروءة النبيلة، وتشف عن جمال الطبيعة والنفس"(١).

ومن هنا كان يلزم أن يتوفر فى القصيدة البناء المتكامل حتى تكون التجارب كاملة، ويقول الدكتور شوقى ضيف :-

" وإذا لم تكن القصيدة بناء متكاملاً فإنها لا تعد تجربة شعرية صحيحة إذ لا تشتمل على حدث فكرى نفسى، يعنى موقفا معيناً عاشه أو عاش فيه من فانحته إلى خاتمته، بحيث أبرزه عملاً قائما بنفسه، عملا له كيانه وله صفاته، وله وضوح التجارب الأخرى، فهو يتكون من جزئيات كثيرة يعقب بعضها بعضا، وكل يسلم إلى أخيه، ولكل جزء وضوحه ووظيفته فى تماسك البناء الكلى وتناسقه حتى نصل إلى نهايته " (٢).

ومن هنا وجدنا صعوبة التجربة الشعرية، فهىّ عمل صعب لأنها خَلْقَ، أو إيجاد لحدث شعرى وجدانى، ولا تتم التجربة للشاعر إلا إذا كان ممن يتعمقون الحياة ويتغلغلون فى بواطنها.

وكان شاعرنا واحدا من هؤلاء الشعراء الذين عملوا، وكافحوا، وقاسوا مرارة الغربة والفراق عن الوطن، والأهل، والخلان.

وقد سجل شاعرنا ما مر به وما عاشه، وتعايشه فى مقدمات قصائده والتى بدت كأنها قصائد كاملة وليست مقدمات لموضوعات أخرى.

ومن هنا وجدنا براعة شاعرنا فى تسجيل تجاربه الشعرية فى مقدمات قصائده من مثل قصيدته عن الغربة، والتى استهلها بمقدمة عن ذكرياته فى موطنه – الإسكندرية – وعن أهله وقومه من آل جذام إذ يقول :-

وكم ليلة بتنا بينى وبينه   عفافٌ يناجى فى العناق غرامى

(١) العلم والشعر – رتشاردز – ترجمة د. مصطفى بدوى – صد ١٩.

(٢) فى النقد الأدبى – د. شوقى ضيف – صد ١٤٠ – ط. الطبعة الخامسة دار المعارف.

وقد ضمنا شوق كما ضم ساهرا ثَوىَ لكرَىَ جفنيه عند منام

فواها على الإسكندرية كلما تنكدّ عيشى دونها بدوام

ديارٌ بها أحباب قلبى ومنشى وقومى من قيان آل جذام

فلى من جذام عصبة جَرَوَية صَفَت كزلالٍ من متون غمام

هى الذهب الإبريز صفت نضارة يدَ السبك من عيب يشوب وذام

إذا اليمن أعتدت بأوْفى فضيلةٍ وجدتهم فيها أمام أمام (١)

وفق الشاعر فى أن يعبر عن مشاعره وذكرياته وهو بين ربوع موطنه، ويذكر ما مر به من أحداث، ويذكر دياره، وأحبابه، وقومه من آل جذام، ويظل شاعرنا يتحدث فى مقدمة قصيدته عن ذكرياته حتى يختتمها قائلاً :

وما الشوق للأوطان من أجل طيبها ولا شرف فيها ولا فضل مقام

ولكنه فى النفس طبع لأجله تجادل فى تفضيلها وتحامى

ونلحظ كمال التجربة التى عاشها شاعرنا ونظمها فى مقدمته من بدايتها لنهايتها.

❁❁❁

ومقدمات قصائد شاعرنا حافلة بالعديد من تجاربه الذاتية والتى بدت واضحة فى أسلوبها ومعانيها وخاصة مقدمات قصائده عن موطنه والتى تناولها واصفاً أو متغزلاً. ونجده يقول فى واحدة منها :-

وفى الإسكندرية لى فؤاد له فى مصر جثمان خراب

---

(١) ديوانه / صـ ٢٨٤.

يـدينك طاعـة سـرا وجهـرا ولـيس لـه علـى عمـل ثـواب

بـذاك الثغـر أضـحكنى زمـانٌ بكـاى عليـه نـوْح وانتحـاب

سقمى تلك المعاهد كلُّ عهد تفيض على الهضاب له هضاب

مضـت لـى فـى جزيرتهـا ليـال لآل هـن لـو قيـل الصـواب

فلـو نظمـت قلائـد للغـوانى لمـا رضِـيت عـن الـدر الرقـاب

رصد شاعرنا مشاعره الذاتية وعبر عنها من خلال ما نظمه من أبيات ذاكرا تعلق قلبه بالإسكندرية واصفاً كل ركن من أركانها من الثغر، والجزيرة، والمعاهد.

وعلى الرغم من كثرة حديثه عنها إلا أننا وجدناه فى قصائد أخرى يتحدث عن الفسطاط قائلا فى مقدمة قصيدة له :-

ولمـا حبـانى الـدهر منـه بعـودة وراجـع حظـى بعـد طـول اجتنابـه

وهبـت لقـرب سـرنى بنعيمـه جنايـة بعـد سـاءنى بعقابـه

ويقول فى مقدمة إحدى قصائده ذاكراً حاله مع تقلبات الدنيا :-

جميلـة المنظـر لكنهـا أقـبح شـئ عنـد مـن يختبـر

قـد وحـل العـالم فـى سـجنها فكـل جـنس تحـت بـؤس وضـر

فقيرهـا يطلـب نيـل الغنـى وذو الغنـى يجمـع كـىّ يـدخر

فـذاك للإمـلاق فـى حسـرة وذاك خـوف الفقـر تحـت الحـذر

والزاهـد العابـد فـى كلفـةٍ مـن شـعث الصـوم وطـول السـهر

وخــوف مــا يلقــاه مــن ربــه فــى آخـر الأمـر إذا مـا حشـر (١)

رأى الشاعر أن يرسم لنا صورة واقعية عن حال الدنيا وما فيها من أنماط وأجناس مختلفة لا يرضى كل منهم عن حاله أو رزقه فيها، ونشعر بصدق هذه الأبيات التى تصدر عن تجربة صادقة عاشها شاعرنا .

ومن هنا لمسنا صدق التجربة الشعرية فى مقدمات قصائد شاعرنا، والتى لم تقتصر على ما ذكرناه، بل وجدناها تشمل معظم قصائده ومقطوعاته الشعرية.. وقد نتج عن صدق التجربة الشعرية.. تأجج العاطفة وعمقها وقوتها وصدقها.

والعاطفة: هى عنصر هام من عناصر التجربة الشعرية.

ويقول الدكتور شوقى ضيف : " إن الأحاسيس والمشاعر هى أهم العناصر فى التجربة الشعرية، إذ هىّ المفتاح الذى يسقط منه النغم، ولابد أن يكون النغم له صفة الدوام حتى يبقى ويخلد " (٢).

إذن العاطفة هى لب الفنون وعمادها، وهى المعزف الذى تصدح به أوتار الأدب، وعليه يعزف الأديب.

فالصلة بين الأدب والعاطفة ظاهرة تتجلى فى الأديب فهى للأديب مبعث لخواطره، وشاحذ لإنتاجه (٣).

" وهى الميزة التى تفصل الأدب عن سواه فهى تختلف باختلاف الآثار فتوجد قوية فى الشعر، والوصف، والقصة وتوجد ثانوية فى مثل الموضوعات التى ترمى إلى التعليم، وهى لا تخلو فى أصلها من أثار العاطفة " (٤).

---

(١) ديوانه / صـ ٢١١.

(٢) فى النقد الأذلى – د. شوقى ضيف – صـ ١٤٦.

(٣) الأصول الفنية للأدب – عبد الحميد حسن – صـ ٦٦. ط. دار الفكر العربى.

(٤) أصول النقد الأدبى – أحمد الشايب – صـ ٢٢ – ط النهضة الحديثة.

.. وتتنوع العواطف تبعاً لتنوع المضمون الذى تحمله هذه العواطف ومنها .. العواطف الاجتماعية والقومية، والعواطف المثقفة والعواطف ذات الشأن فى المثل العليا للحياة، والعواطف الفردية والعواطف الصادقة البعيدة عن التكلف والتصنع، وهذا النوع اختص به شاعرنا وبدا ظاهرا فى العديد من مقدمات قصائده، وخاصة إذا كانت قصائده مدحية، فنجده يقدم لها بمقدمات غزلية وقد اتبع هذا التصور فى العديد من قصائده.

إذ يقول :-

الحب مذكان معنى يصحب الأدبا فإذا تغزلت فى مدح فلا عجبا

وأحسن الشعر ما أضحى تغزله إلى المدائح فى إنشاده سببا (١)

وقد أخذ شاعرنا هذا التصور من قراءته للشعر القديم، وهو تصور لا ينفرد به، بل يشترك معه فيه أكثر شعراء العربية.

.. وقد تمثلت عاطفته فى كثير من مقدمات قصائده من مثل قوله :

يا قلبُ كنت أدلُّ منك بعزمةٍ حتى دَهَتْكَ سوالفٌ وعيون

فسبتك لمحة شادنٍ من برقع وتصرَّفتْ بك فى الفنون فنون

ووفيت لى لما صحبتُك فى الوغى فإذا التمستك بالسلو تخون (٢)

أراد الشاعر أن يُظْهر أثر العاطفة، وما تحدثه فى النفس من تغيير فهو ينادى قلبه ويسأله عما وصل إليه من حال اختلف عما عهده فيه فقد كان فى سابق عهده قويا ذا عزيمة وهمة، وعندما داهمته عيون محبوبته تغير حاله

(١) ديوانه / صـ ٣٠.

(٢) ديوانه / صـ ٢١٤.

وتبدد إذ نجده فى البيت الثالث يوجه لقلبه اللوم، فقد خان عهده، الذى قطعه معه ووقع فى شراك الهوى.

وعاطفة شاعرنا هنا عاطفة ذاتية غزلية.

❁❁❁

ونجده يصور هذه العاطفة فى مقدمة قصيدة له إذ يقول :-

آه مـــن لوعـــة وجـــد دائـــم يتلظـــى فـــى حشـــى ملتهـــب

هـــى أســـياف وتـــدعى حَـــدَقا يـــالقومى مـــن عيـــون العـــرب

وأحـذر الأضـعف مـن أجفانهـا فالمنايـا بـين تلـك الهـدب (١)

استطاع شاعرنا أن يصور تأجج عاطفته التى اشتعلت بين جنبات نفسه، إذ يذكر فى البيت الثانى منبع هذه العاطفة وهى عيون محبوبته فقد شبهها بالأسياف الجارحة النافذة فى القلب.

لقد وقف ظافر موقف المحب الذى يقبل على المرأة بعواطف صادقة، ويمنحها قلبا وفيا، ويسعى وراءها دائباً، فلا يلقى فى حبه غير الحرمان، فإن بادلته عاطفة بعاطفة، فلابد من فراق وشيك يؤدى به إلى الحرمان فيقاسى فى الحالين من الآلام ما يفقده قلبه وعقله، وصحته وصبره فهو بادى السقم، دائم البكاء، طويل السهر.

وكل هذه الصور التى رسمها لنفسه محباً وللمرأة محبوبة، لم يستلهمها من تجربته الخاصة معها، وإنما من التراث الشعرى القديم الذى أراد أن يقفوه، فاحتذاه احتذاء صادقا فى تصويره لنفسه. ولكن هذا لا يجعلنا نقول أن عاطفة شاعرنا عاطفة تقليدية خالية من كل ابتكار أو تجديد، بل اتخذ شاعرنا منهجا خاصا به فى تصوير عاطفته ورأينا ذلك الطابع يتجلى فى القصائد التى خلط

(١) ديوانه / صـ ٣٩.

فيها بين الإسكندرية والطبيعة والحبيب، فجعلها شيئاً واحدا، لا يستطيع أن يفصل بينها من مثل قوله :-

وفى الإسكندرية لى فؤاد له فى مصر جثمان خراب

ويقول :-

إيه على تذكار ما سَلَفا فالدمعُ منك أقلُّ ما وكفا

يا عين أنت جلبت ناظرة لفؤادى الأشواق والشغفا

ويقول :-

نحا البين فى تشتيت شملى مَقَاصدا فسَدَّد رَمْيا نافذا ليس نافذا

كأن فؤادى بينهم تحت أسهم تشمر عند الرَّمى منها الحدائدا

رمانى فأصمانى وأغرق نَزْعَهَ وكرَّر حتى كلَّ كفا وساعدا

وسَدَّ الغضا بالنَّيل حتى أعادنى أسيرا إليها أينما كنت حائدا (١)

وما أنا إلا السيف فارق غمّده ولم يلفِ بعدَ الضربِ والقطع غامدا

ويصور عاطفته وشوقه إلى الثغر قائلاً :-

ينازعنى شوق إلى الثغر هاجس أثارته أنفاس النسيم النفائس

ويقول فى مقدمة إحدى قصائده :-

هل لى إلى الثغر من عَوْد ومتقلب فالعيشُ منذ رحيلى عنه لم يطب

إذن عبر الشاعر عن عاطفته للثغر وعن شوقه فى العودة إليه، ويصرح بأن عيشه لم يطب وهو بعيد عنه.

---

(١) ديوان / صـ ٩٣.

وتجلت عاطفة شاعرنا فى كثير من مقدمات قصائده تجاه الأفضل شاهنشاه بن حيدر الجمالى (٤٨٧ – ٥١٥ هـ) فقد ربطت بينهما الصداقة والمودة، وأجزل له فى العطاء، وقد ظهرت هذه العاطفة فى كثير من قصائد شاعرنا المدحية، وتلازمت العاطفة الصادقة مع صفات الممدوح ورأيتها تكاد تكون ثابته لا تحركها ضغائن، أو تعكرها وشاية حتى عندما شكا له قلة الراتب وضيق الحال.

إذ يقول فى مقدمه إحدى قصائده :-

عليك ثناء العالمين فصيحُ وفيك ولاءُ العارفين صحيحُ

تبرعت بالإحسان للناس كلهم فحبك فى سر القلوب صريح

ونجده فى نفس هذه القصيدة يشتكى له حاله إذ يقول :-

ولى حاجة يرضى بها الله أولا وفيها ثناء شاسع ومديح

فلى عْيلةٌ عشر وجارى خمسةٌ وباطن أحوالى بذاكَ قبيح

وأحوالهم فى فرط عُسرٍ وضيقةٍ وليس لهم إلا نِداك مريح (١)

ويقول فى مقدمة إحدى قصائده معبرا عن عاطفة صادقة خصّها للأفضل :-

يا أفضل الناس لم تنسب إلى لقب إلا فعِلُك أوفى منه فافتخر

وما دُعيت بشاهنشاه فاعترفتْ به الملوكٌ على جهل ولا غرر (٢)

ويذكر شاعرنا سبب هذه العاطفة إذ يقول فى مقدمة إحدى قصائده :-

---

(١) ديوانه / صـ ٦٩ وما بعدها.

(٢) ديوانه / صـ ١٢٨.

سَأَرعَدْلُكَ فى الدنيا فلو لحقت　　أيامَه وائل ما عاش جساس

عدل به بان وجه الحق فهو له　　فى كل فن مدى الأيام قسطاس (١)

ويشترك مع الأفضل صديق شاعرنا أُمّية الشاعر الأندلسى الذى كان تربطه صداقة وثيقة به وكان شاعرنا يكن له أجمل المشاعر والأحاسيس إذ يقول فى بداية إحدى قصائده :-

لقد صاولتنى يا أبا الصَّلت مذنأتْ　　ديارُك عن دارى همومٌ وأشواق

إذا عَزّنى إطفاؤها بمدامعى　　جَرتْ ولها ما بين جَفَنىَّ إحراق

ويصرح شاعرنا فى بيت آخر من هذه المقدمة بصدق هذه العاطفة وتجردها من أىّ منفعة إذ يقول :-

أخى سيدى مولاى دعوة من صَفا　　وليس له من رِقٍ ودك إعتاق (٢)

.. قد أفاض شاعرنا بحديثه عن العاطفة الصادقة التى تنشأ بين الأصدقاء والخلان، وأرى أن عددا ليس بالكثير من الشعراء تناول هذه العاطفة ومنهم ظافر لما عُرف به من لين الجانب، وحسن المعاشرة إذ وجدناه يتمسك بخلانه وأصدقائه، ويرى أن الصداقة هى إحدى لذات العيش والحديث العذب بين الخلطاء متعة لا تعد لها متعة، ولا يشوبها غير مرورها السريع فلا تكاد تحس لها طولا.. إذ يقول :-

سقى الله أيامى بكم، إذ زمانها　　قصير، وفى اللذات منه سبوغ

وقد ألهمت عاطفة الصداقة شاعرنا مجموعة من الأنواع الأدبية، إذ جعلته ينظم الشعر الإخوانى، ويكتب النثر، ويؤلف المقامة، ومنحه مجموعة

(١) ديوانه / صـ ١٦٤.
(٢) ديوانه / صـ ٢١٧، ٢١٨.

أوفر من الأغراض الشعرية، حين حدث به إلى أن يصف، ويعاتب، ويعتذر ويتشوق، ويثنى، ويداعب، ويدعو، ويذم إذ يقول فى بداية قصيده له :-

أخـــلاىّ بـــالثغر دام الفـــراق ولازمنـــــى أســـــف واشـــــتياق

تصـبرت عـنكم علـى حـالتين أســـى يتلظـــى ودمـــع بـــراق

وأرغمـــت قلبـــى علـــى ســـلوة فغايـــة مـــا نـــال منهـــا الطـــلاق

وأصـعب مـا حاولتـه النفـوس مـن المـر تكليـف مـالا يطـاق

فهـل لـى إلـى العيش مـا بيـنكم كمـا كنـت مستمسـك وإعـتلاق (١)

.. ومن هنا وجدنا صدق هذه العاطفة التى كشفت لنا عن جمال الصلة بين ظافر وأصدقائه ووثاقتها، وأنه حمل لهم الود والمحبة والإخلاص.

لقد تجلت عاطفة شاعرنا وبدت واضحة متنوعة مبتكرة وخاصة عندما يتحدث عن عاطفته الوطنية ويظهر من الأشواق واللهفة لبلدته ما يصدرها لمحبوبته ونكاد لا نعرف الفرق بينهما.

كما برزت عاطفته الإخوانية فى العديد من مقدمات قصائده، ولمحنا فيها الصدق والإخلاص، ونستطيع أن نذكر تميز شاعرنا برصده لهذه العاطفة التى نجدها قليلة عند بعض الشعراء، إلا أن ظافرا قد أظهرها وأحياها، حتى بدت واضحة فى كثير من مقدمات قصائده.

۞۞۞

وكىّ تكتمل الصورة الإبداعية والجمالية فى شعر شاعرنا كان لابد أن يتلازم الخيال مع العاطفة، فالعاطفة وحدها لا تمثل الجمال الفنى والإبداعى للقصيدة، ومن هنا نشأت العلاقة الوثيقة بين العاطفة والخيال " فهو الذى يصورها ويبعث مثلها فى نفوس القراء والسامعين، وقوته مرتبطة بقوتها، فإذا

(١) ديوانه / صـ ١٨٧.

كانت صادقة قوية أنشأت خيالا رائعا، وإذا كانت سقيمة مصطنعة كان الخيال هزيلا سخيفا " (١).

۞۞۞

والخيال الفنى :ـ

" ليس مجرد جمع للأجزاء والعناصر، بل هو اختيار وتنسيق وتصرف بالزيادة، أو الحذف، أو التصغير أو التكبير، أو الاقتطاع، أو الإضافة، ويبدو هذا فى وصف مظاهر الطبيعة، حيث يتجلى الفرق بين الأسلوب الخيالى والأسلوب السردى " (٢).

وللخيال منابع وروافد عديدة منها : الوجدان ونصيبه من التأثر . والحساسية والحرية.. التى يحس الإنسان فى كنفها أن عقله يسبح فى عالم يغمره النشاط والإقدام (٣) ويشعر كأنه طير سابح فى جو السماء يحوم فى فضاء خالٍ من العقبات و العراقيل، لا تعترضه حدود، ولا تقف أمامه حواجز.

وشاعرنا ظافر ارتوى من هذين النبعين، ففاضت عنده حدة الوجدان العاطفى، وتمتع بحرية مطلقة فقد عاش متنقلا بين أرجاء الطبيعة الساحرة، فوجدناه يتغنى بجمالها فى العديد من مقدمات قصائده واصفاً لها إذ يقول فى مقدمات إحدى قصائده واصفاً سحر البحر وجماله :–

وآصالنا فى سَاحِلِ البحر نَعْتلَي ... به الرمل ما بين الكَثِيب إلى الْوَهدِ

نُغازِلُ من غِزلانه كُلَّ سابح ... له مقلة عادَاتها قَنصُ الأسدِ

حكت بيننا الأمواجُ أثقال رِدْفهِ ... فآونة تخْفى وآونْة تُبدى

---

(١) أصول النقد الأدبى – أحمد الشايب – صـ ٢٢٣ – ط. الطبعة الثامنة النهضة المصرية.

(٢) الأصول الفنية للأدب – عبد الحميد حسن – صـ ٩٤.

(٣) الخيال الشعرى – د. طه مصطفى أبو كريشه – صـ ١٩١ – ط دار التوفيقية بالأزهر.

هو الماء فوق المِاءِ هَذَا نعَافُه أُجاجاً، وهذا فيه أَحَلى من الشهدِ

إذا قابل التيار هَيْفَ قُدُودِها أَرتْنَا فِعاَل الريح بالقضِب الملْدِ

ويقول :-

ويحر الملح مِثلَ الفحِل يَرْغُو ويَزيد حين يقلقه الهباب

وتحسب سُفُنه صفة ولوناً فِيولا حِين يَرْفَعهُا الهباب

ويحلق شاعرنا بخياله ويرسم صورة فنية رائعة إذ يقول :-

يا لَيْتَنَى أَحْظَى بِشَمِ نَسِيمه وبديع مَنْظَرِهِ، وَلَثْم تُرَابِه

ويُعلُّنى ذَاكَ الخليجُ بِشَرْبةٍ سيما إذا انتسَجَتُ دُروعُ حبَابِه

وصفَا ورَاقَ وعادَ مدُّ زلاله كالسيف جُرد من خِلاِل قِرابِه

فكأنه والريحُ تنقش مَتْنُه حِرزٌ عليه يُدقُّ خَطُّ كِتَابه

كالمِبرد المنقوش نَقْشاً خفَّفتْ آثارِ مَوْقِعَهُ بَدَا ضُرًّا به

كضفيرة الخْوّاص أمكَنه لها سَعَفٌ ضَفاَ فَأَرْقَ ضَفْرُ لُبابِه

حيثُ الغصونُ رواقص ويَمامها يَشْدوُ بطيبِ الزّمر من دُولاَبِه

حتى يُجرد سَيْفَه أسيافُها بجداولٍ جُدَّلَن فى أعشابه [1]

أجاد الشاعر في أن يرسم لوحة فنية رائعة لخليج الإسكندرية إذ كانت له فيه ذكريات جميلة عاشها فى الخليج واستحضرها فى ذهنه وهو فى غربته. وقد عرض فى هذه الصور ملامح من حقله الشعبى ورسم فيها الشاعر صورة للخليج، وقد امتد ولمع ماؤه الأبيض، وتفرعت منه قنوات وترع تسقى الزرع،

(١) ديوانه / صـ ٤٨، ٤٩.

وشبهها بالسيوف المصلتة المسلولة و.. نرى أن هذه صور وقع فيها الشاعر فى أسر القوالب التقليدية لتشبيه الجداول ويقول فى صورة أخرى للخليج :-

وسيف خليجها كالسيف حدا وفى أرج الرياح له اضطِرابُ

... وعلى الرغم من هذا المصطلح والقوالب التقليدية المتخيلة إلا أن شاعرنا لا يعدم تشكيلا مبدعا لعناصر الطبيعة فى صور الشاعر للخليج الإسكندرى ومروجه، فهو يدخل أصوات الحمام، والضفادع، وزمر الدولاب، ورقص الغصون لتعبر هذه العناصر عن أحاسيس الفرحة والسعادة إلى جانب مشاهد السيوف والمدى والجوشن وما إليها، التى تثير خيال الحرب المفزع المخيف وسط هذا الجو الملئ بالمتعة والنعيم.

... ويبدع شاعرنا فى رسم صورة فنية لبلدته الإسكندرية، وهى مدينة جميلة زادها جمالا بخياله إذ يقول فى بداية قصيده له :-

وكم يوم لنا بالرمل فيه حديث مثل ما نثر السحاب

حديث كاسمِهِ فينا حديث كما يسقى أخاظما ثغاب (١)

جلسنا والرمال لنا حشايا وأوراق الكروم لنا حجاب

... صور شاعرنا الإسكندرية وقصور الرمل، وكرومه، وزهوره البرية كالشقائق الحمراء والأقحوان الأبيض.

ونلاحظ فى مقدمات قصائد شاعرنا أنه قد أكثر حديثه عن "الرمل " وأعطاه من الصور ما يجعله موضعا معينا اختص بهذا الاسم ونجده هنا يتخيل رمل الإسكندرية ويشبهه بالروضة إذ يقول :-

وهل إلى الرمل الندى نباته فأختال فى تلك الرياض وأرتع (١)

---

(١) الثغاب – ما بقى من الماء فى بطن الوادى.

وقد نعم بحبه فيقول :-

فبالرمل من شرقيه من بحبه سرائر تسرى فى أدق عظامى (٢)

ونتساءل لماذا أكثر ظافر حديثه عن الرمل ؟..

والإجابة.. أن ظافرا ورفاقه اتخذوا من الرمل منتدى لسمرهم ولهوهم وهذا ما ذكره فى قوله :-

الأهل إلى برد الأصائل بالحمى على الرمل فى ظل الأراك إياب

ليالى يزهينى لذيذ حديثكم وألفاظه مهما استعدت عذاب (٣)

وكان ظافر يرسم لوحاته الفنية من ذاكرته، ويتبع ما تأتى به ذكرياته وقد تنوعت صوره وكان أكثرها عن الإسكندرية التى نشأ وقضى فيها أجمل ذكرياته وتغرب عنها، وكان يحن ويتمنى العودة إليها، دون أن تتركز أفكاره على بقعة معينة منها، وكانت مشاعره تحوم أحيانا حول واحد من أحيائها أو قصورها أو أثارها أو متنزهاتها، فيتجلى أمامه، فيخصه بالرسم، ولذلك نجد فى ديوانه.. الصور العامة للإسكندرية، والصور الخاصة لمنطقة منها.

ونجد فى بعض الصور العامة إطلالة بعيدة، لا تقف عند شئ بعينه إذ يقول :-

نعم المحل ونعم مرتبع به يجلو جنان الصب من أوصابه

يا ليتنى أحظى بشم نسيمه وبديع منظره ولثم ترابه (٤)

---

(١) ديوانه / صـ ١٥٣.

(٢) ديوانه / صـ ٢٠٦.

(٣) ديوانه / صـ ٣١.

(٤) ديوانه / صـ ٢٦.

ونجد فى بعضها اقترابا، يجذب النظر إلى المعالم الكبيرة، ويعطيها حقها من الألوان، ولكن لا يبين المعالم الدقيقة، أو التفاصيل المفردة.

وأكثر ما نجد من هذه المعالم الكبيرة فى صور ظافر " خضرة النبات " فالإسكندرية فى خلده روضة فسيحة الجنبات واسعة الأرجاء حاكتها يد الأمطار الصناع، ووشتها بأصناف الأصباغ إذ يقول :-

والروض ينشر من نواره حللا مما تحوك يد الأنواء والسحب

ونشرتها على كل ثرى، فغطت حتى الرمال إذ يقول :

حيث التسيم الساحلى يزوره وندى رياض الرمل عطر ثيابه (١)

ولم يقتصر خيال شاعرنا على الرمل أو المطر فقط، بل اتسعت رؤيته الإبداعية فشملت الأزهار، فنجده يتحدث عنها وعما أحدثه المطر فيها وإذ هىّ تبعث شكرها له ريحا ذكية تعطر الآفاق، إذ يقول فى افتتاحية قصيدة له :-

منابت أزهار يكرر نشرها على القطر شكرا ذائعا ومحامدا

تخط يد الأنواء فيها صحائفا فينشدها راوى النسيم قصائدا

ويكثر حديث شاعرنا عن الأزهار وأنواعها، ويستهويه منها الأقحوان، والشقيق، والبهار، فيكثر من رسمها فى صوره المتعددة، ويطيل الوقوف عندها، ويعطيها تفاصيلها، ويمنحها صورا من خياله تستجيب لما تبثه فى نفسه من مشاعر، إذ يقول فى مقدمة إحدى قصائده :-

والأقحوانه تحكى ثغر غانية تبسمت فيه من عجب ومن عجب

فى القد والثغر والريق الشهى وطيـ ـب الريح واللون والتفليج والشنب

كشمسة من لجين فى زبرجدة قد أشرقت تحت مسمار من الذهب

(١) ديوانه / صـ ١٠٩.

وللشقائق جمر فى جوانبها بقية الفحم لم تستره باللهب
وللبهار دنانير منمقة سبك الغيوث بنار الشمس فى العشب[1]

وشاعرنا لا يهمل غيرها من الأزهار، بل رسم السوسن والريحان بين وقت وآخر.

۞۞۞

وهذه لوحة فنية بديعة صدرت عن خيال خصب، إذ صور فيها شاعرنا الأشجار والأغصان وكان شديد الإعجاب بهما وبخاصة إذا ما تكاثفت وزاحم بعضها بعضا، وهبت عليها الرياح، فتمايلت، وصارعها الضوء فلم يستطع أن ينفذ من خلالها إلا قليلا.

ويرسم هذه الصورة الفنية فى مقدمة إحدى قصائده إذ يقول :-

كأن الغصون المائسات رواقص تثنت على إيقاع دف ومزهر
تضايقت الأشجار فى الجو فوقها سوى فرج تهدى الضياء لمبصر
فيبسط منها البدر كل مدرهم وتنشر منها الشمس كل مدنر [2]

وتزدحم الصور الخيالية فى مخيلة شاعرنا وخاصة فى ذكرياته عن بلدته الإسكندرية، وإن لم تتمثل له الإسكندرية روضة كانت حديقة كروم وموضعا للنزهة، ومسرحاً للهو إذ يقول فى بداية قصيدة له :-

فكم لى به من غدوة وعشية يقصر عن إدراك أمثالها المنى

فطورا لنا بين الكروم مرابع يشاهد فيها البدر أمثاله بنا

.. ويبدو أن الإسكندرية كانت تعرف فى ذلك الوقت شأنها فى عصرنا الحديث بكثرة الكروم وجودتها، قال المقدسى عنها : " جيدة الفواكه والأعناب "[1].

---

(١) ديوانه / صـ ٢٥.

(٢) ديوانه / صـ ١٠٨.

ومهما كانت صورة الإسكندرية التى تقف أمام شاعرنا، فإنها كانت تجلب إليه معها هواء الإسكندرية العطر ويقول عن النسيم فى بداية قصيدة له :

وللنسيم العليل الرطب وسوسة فيهن كالسر بين الرفق والصخب

ونجده يصف النسيم بأنه رطب قد بلله الندى، أو حمله الزهر من شذاه العطر ويقول :-

وهل أتملى من نسيمك سحره يصافح طلول النبات المنور

ولا ينسى شاعرنا أن يضيف إلى هذه الصور صورة الماء الذى تمر به الريح فتجعله كالزرد، أو تلقى عليه الشمس أشعتها الحمراء عند الغروب، فيختلط فيه بياض بحمرة، ويجسد هذه الصورة فى قوله :-

ومن أصيل كأن الماء فيك به ذوب اللجين علاه ذائب الذهب

ويقول فى بداية أخرى مصورا الماء فى وسط بساط أخضر يأخذها من الثياب الحريرية.

كأن بياض الماء فى كل جدول إذا لاح فى غصن من الروض أخضر

غلالة شرب ضمها فوق لابس رشيق قباء أخضر لم بزرر (٢)

وتتجلى الصور الفنية عند شاعرنا، فلا يقتصر تصويره الفنى على ما يراه فى الأرض فقد تعلق نظره بالسماء، فرأى السحر والخلود والدلالة الكبيرة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، ووجدناه يصورها فى لوحة فنية متكاملة ويقول :

والغيم يبكى والبرق يضحك والـ ـرعد من الغيظ صائح محنق

---

(١) أحسن التقاسيم – المقدسى – صـ ١٩٧ – ط الطبعة الثانية سنة ١٩٠٦.

(٢) ديوانه / صـ ١١٢.

والبــرق ثــوب تشــف حمرتــه والرعـــد تصـــويته إذا خـــرق
كــأن قــوس الغمــام حاشــية مــن سـقط الخـز بعـد مـا طبـق
أو كحواشــى عصــائب ظهــرت ألوانعمــا فــى جبــين مــن يعشــق
دوائـــر صـــبغت مداخلـــة فكـــل لـــون بضـــدة ملصـــق
أطــواق لاذ فــى جيــد غانيــة درج ألـــوانهن مـــن طـــوق

قد صور شاعرنا الغيم وهو يبكى، والرعد بصوته القوى يقابله على النقيض ضاحكا والرعد يعان عن غيظه، والبرق يظهر بحمرته فى السماء.

ونلاحظ التداخل والتماذج بين هذه العناصر بحيث يعطينا انطباعاً حسيّا رائعاً، فكأننا أمام لوحة متحركة ومسموعة، نكاد نسد آذاننا من هول هذه الأصوات، وإننا نتعجب من رسم شاعرنا لمثل هذه الصورة الفنية الصاحبة، ومرد هذا التعجب هو حب شاعرنا للسحب وهى صاخبة، فهو لا يحبها صحوة، وإنما يحبها وهى ذات مطر، ورعد، وبرق.

ومن هنا وجدنا شاعرنا قد ذكر كل مجلى من مجالى الجمال، فلم يترك مشهدا من مشاهد الحسن، ولا أثرا من أثار الخلود، ولا خاصة من المفاخر، ولا ميزة من المزايا، فى الإسكندرية إلا صورها فى شعره، صور بعضها فى عجلة خاطفة، أو إشارة لامحة، لأنها لم تكن ذات معنى خاص عنده وتأتى فى بعض البقاع، فيعطيها صورة دقيقة مفصلة، تحوى كل جميل من معالمها، وصور كل جزء من ذاكرته، وقد غلفه البعد بسحره، والشوق بحسنه، فأحاطه الخيال بمجموعة من الصور التى تكمل شكله، وتزهى لونه، وتعمق إيحاءه.

وجلىّ أن الكثرة الغامرة من هذه الصور التى رسمها فى أثناء إقامته فى الفسطاط فصدرت محملة بكل ما تهفو به نفسه من مشاعر الحب، وللشوق، واللهفة.

.. أما ما نظمه فى أثناء إقامته فى الإسكندرية فأبيات قلائل، يقولها وحى الساعة، فى مشهد من المشاهد، حقا تحمل من سمات صاحبها أشياء وتومئ إلى براعته فى الوصف، وقدرته على التخيل، ولكنها لا تبارى ما قاله فى غربته.

وليس معنى ذلك أن لم يضفى على شعره الجمال والسحر والعذوبة وهو يتحدث عن الفسطاط، فكم من صور عديده ألبسها حلا من الجمال وهو يتحدث عن النيل إذ يقول :-

ولله مجرى النيل فيها إذا الصبا أرتنا به فى سيرها عسكرا مجرا (١)

فشط يهز السمهرية ذيلا ونهر يهز البيض هندية بترا

وإذا مد حاكى الورد غضا وإن صفا حكى ماءه لونا ولم يعدّه شبرا

ولكن الحقيقة الثابتة التى لا جدال فيها أن الصور تتسع فى الإسكندرية وتصغر فى الفسطاط، فالصور التى رسمها لبلدته كثيرة تكاد تستغرق شعره كله، وتستحوذ منه على القصائد الكاملة، بينما لا يعطى للفسطاط غير الأبيات القلائل.

ونجد صور الإسكندرية تتشح بمشاعر فياضة من شاعرنا، تتجلى فيما خلعه عليها من الألوان، والأشكال، والخيالات، فالتدفق العاطفى الذى عاش فيه ظافر كان له أثره البارز فى رسومها ورسمها على بعد، واغترفها من انفعاله، وأبرزها له حنينه. أما صور الفسطاط فقد اقترح أكثرها عليه ممدوحوه الذين لا يرد طلبهم، وأصدقاؤه الذين يخشى ألا يلبى رغبتهم فيوصم بالعجز فكان رسمه لها فوريا، يعتمد على ما يعطيه بصره منها، لا ما يمنحه انفعاله.

(١) ديوان / صـ ٢٠٦.

ولم يقتصر خيال شاعرنا وتصويره الفتى على الطبيعة وجمالها وسحرها فحسب، بل وجدنا صورا متعددة فى مقدمات قصائده، منها صورته عن المرأة، إذ يقول :-

أبصرت ثم هويت ثم كتمت ما ألقى، ولم يعلم بذاك مناج

هذا الإبصار، لم يكن شاعرنا جاهلاً به وبعواقبه، بل كان جَدَ عارف، ولذلك كان دائم الحذر أن ينزلق به بصره إلى حب ولكن هذا الحذر خانه، وأعرض عنه عندما أبصر. إذ يقول :-

حذرت الهوى مذكنت حتى استفزنى بوجه كأن الشمس تحت نقابه

وأما من أبصره، فقد أنساه حذره وأوقعه فى حبه، وأفاض فى وصفه فنال القسط الأكبر من غزله، وصوره قائلا :-

واقصدا منه غزالا باسما عن شتيت كالأقاحى شنب (١)

ويصور قائلاً :-

قمرو شمس، نقاغصن شادن يفتر عن برد (٢)

ويمنحه فى أوقات نادرة وصفا عاماً باكتمال الحسن، ويركز بصره على قامته ووجهه، ولم يهملها فى قصيدة له بل هى ثابتة لا تتغير، وصفاته هى قد فى اعتدال الغصن، وأرداف ضخمة فى ضخامة الكثيب، إذ يقول :-

فأيصر كثبانا وهن روادف عليهن أغصاد وهن قدود (٣)

ويصور قائلاً واصفاً الخصر والأرداف :-

والغصن يفلق فى الكثيب تذريا بيسير ما يحكيه من حركاته
يمشى فيلقى خصره من ردفه مثل الذى ألقاه فى إعناته (١)

(١) ديوانه / صـ ١٥٨.
(٢) ديوانه / صـ ١٥٤.
(٣) ديوانه / صـ ٧٧.
(١) ديوانه / صـ ٥٠.

❁❁❁

وتتوالى صورة الحبيبة فى ذهن شاعرنا ويصورها تارة بالبدر وأخرى بالشمس ونلاحظ أن شاعرنا استلهم كثيراً من هذه الصور من التراث القديم،ولكننا وجدناه بعد عن الصفات القديمة وخاصة عند صورته للعيون إذ يقول :-

هى أسياف وتدعى حدقا يالقومى من عيون العرب (١)

....

كم نظرة نالت بطرق ذابل مالا ينال الذابل المهزوز (٢)

....

هلال فى قضيب فى كثيب لواحظ طرفه شرك القلوب (٣)

....

فنجد اختفاء الصفات القديمة للعيون مثل، والدعج، والكحل، والتشبيه بعين البقر، وبرزت صفات الفتور، واللحظ القاتل، وهذه الصفات الجديدة ترجع إلى التطور الذى خضع له المجتمع الإسلامى فى عصوره المختلفة ونجد فى هذه الصور حلاوة تأتى من هذا الكساء اللفظى العذب الذى ألبسها إياه، ومن هذا التلاعب فى العبارات التى تؤدى كثيرا من الصور ليبعد الملل.

❁❁❁

وتجلت مقدمات قصائد شاعرنا وهو يتحدث عن المشيب هذا العدو الفاتك القاتل لمشاعر شاعرنا، وقد صوره الشاعر بصور مختلفة ومتنوعة فصور شبابه بالصديق الخائن الذى خان عهده معه، وأنى بغريمه وهو مشيبه.

إذ يقول فى مقدمة إحدى قصائده :-

لا غرو أن رحل الشبابُ وبانا ما كان أول من صحبت فخانا

---

(١) ديوانه / صـ ٣٤.
(٢) ديوانه / صـ ١٢٥.
(٣) ديوانه / صـ ٣٦.

مـا الشـيبُ للإنسـان إلا غايـةٌ فيهـا يُـزمّ اللهـو عنـه عنانـا (١)

ويقول فى بداية قصيدة له مادحاً الشباب مثنيا عليه، ذاماً للمشيب غاضباً منه.

تـولى شـباب واقتـراب فأمعنـا ووالـى مشـيب واغتـراب فأدمنـا

فياحبـذا ليـل الشـباب الـذى نـأى ولا حبـذا صـبح الشـيب الـذى دنـا (٢)

فنلاحظ كثرة الطباق فى هذين البيتين بين تولى – ووالى، وشباب ومشيب، واقتراب واغتراب، وأمعنا وأدمنا، وليل وصبح ونأى ودنا.

إذن ديوان شاعرنا زاخر بالصور الفنية الرائعة التى تجذب كل حواس الإنسان ولا تغلب حاسة على أخرى.

واتسمت هذه الصور بالانطباعية، التى راعى فيها شاعرنا وقعها فى نفسه والشعور الذى أثارته، أكثر مما راعى أى شئ آخر، سواء كان هذا الواقع لشكلها أو لونها أو صوتها أو رائحتها.

ويقول الدكتور حسين نصار محقق ديوان شاعرنا :

" كانت صور ظافر أقرب إلى التجريد من التسجيل، وإلى الإيحاء بما تريد إعطائه ".

ومن هنا وجدنا بكارة خيال شاعرنا، وحرثه المثمر فى هذه الأرض البكر التى أثمرت نتاج ثرى غزير من الصور الفنية المبتكرة.

ومن المألوف أن الخيال والصور الفنية هما نتاج أفكار خصبة غنية ومعانى مألوفة واضحة.

❁❁❁

(١) ديوانه / صـ ٣٠٥.

(٢) ديوانه / صـ ٣٠٥.

الأفكار والمعانى :-

تنوعت الأفكار والمعانى فى مقدمات قصائد شاعرنا، فبدت ظاهرة جلية، تعلن عن صاحبها.

وقد استقى شاعرنا أفكاره ومعانية من التراث الشعرى القديم وجعل هذا التراث البنية الثابتة التى يبنى عليها كل جديد مبتكر، فشاعرنا لم يكن مقلدا وإلا ما ظهر إبداعه وتفوقه وتميزه على غيره من شعراء عصره. ولكنه كغيره من الشعراء المجيدين الذين يرتبطون بكل ما ظفر به عالمهم من تراث رائع يتمسكون به، ويقلدونه ثم يبدعون ويجددون.

وهذا ما نطلق عليه " **الأصالة** " ويقول الدكتور شوقى ضيف : " لابد للأديب من الثقافة بآداب أمته، وآداب غيرها من الأمم، ولكن على أن لا يتحول محاكيا، ولا مقلدا لما قرأه، فذلك يعنى عقمه، وإنما معناه أن يستضئ بخبرات السابقين، ويستنير بما استجلبوه من غوامض الطبيعة والحياة الإنسانية، ثم ينفذ بعد ذلك بأشعة عقله ونفسه إلى ما يتمثل فى خاطر أديب من قبله وصلته بالقديم لا تلغيه، وإنما تتيح له الازدهار والانتظام فى سياق أدب أمته العام " (١).

وهذا ما اتبعه شاعرنا فى كثير من مقدمات قصائده .

ومن الإفكار التى استقاها ظافر فى قصائده المدحية. أن يبدأها بالنسيب، ثم يتخلص منه إلى الثناء على الممدوح، وتنتهى بالدعاء أو السلام بأن يطول به العمر فى عز سابغ، ونعمة ممدودة، وسرور عميم.

ذلك هو الإطار العام لقصيدة المديح عند ظافر، وتلك هى الخطوط العريضة التى تكون معالمها عنده.

وقد اتخذ ظافر من أسماء ممدوحيه مصدراً لإلهامه، فقد استقى منها كثيرا من أفكاره وصوره التى مدحهم بها، وأبرز ما تتجلى هذه الظاهره فى "

(١) فى النقد الأدلى – د. شوقى ضيف – صـ ١٧٧.

الأفضل " الذى اعتمد على اسمه، وأكثر من الإشارة بفضله إكثارا بيناً إذ يقول :-

وفضلك مثل الشمس نور ورفعة وحاشاه بل أعلى وأسنى وأسير (١)

وكما تجلت الأفكار فى مقدمات قصائد شاعرنا، فقد برزت **معانيه** واضحة جلية ولم يكن شاعرنا يقف عند ما جمعه من معان وصور معجبا، ويضعها فى شعره راضيا، بل كان يخضعها لصنعة قاسية.

فكان يشذ بها فيقص من أطرافها، ويلتقط منها أشياء، ويطرح أخرى ويتخذها مرة قاعدة لبناء آخر، وأخرى ملهما، لصورة مقاربة، وثالثة أصلاً لصورة فرعية، ورابعة جسدا يفتن فى الرداء اللفظى الذى يكسوه إياه.

فإذا ما تم له الجمع والتوليد للمعانى وعزم على التنسيق بينها ووضعها فى إطارها تناهيته اتجاهاته الذهنية التى تخضع هذه المواد لعملية أخرى تغير كثيرا من معالمها وتضع طابع ظافر عليها.

وأبرز ما نستبين فى شعر ظافر عامة، وفى وصفه خاصة – التشبيه – فظافر يكاد لا يعطى معنى من معانيه غير مقرون بصورة مماثلة له إذ يقول فى مقدمة إحدى قصائده :-

كأن بياض الماء فى كل جدول نُصولُ سيوفٍ أخلصتها المَداوِس

كأن نبات النرجس الغض إذا بدا شراريب خضر فوقهن كبائس (٢)

ويقول فى مقدمة قصيدة أخرى :-

كأن فؤادى بينهم تحت أضلع ؟ تشمِرّ عند الرَّمىِ منها الحدائدا (٣)

---

(١) ديوانه / صـ ١٢١.

(٢) ديوانه / صـ ١٥٦.

(٣) ديوانه / صـ ٩٣.

ويقول فى نفس هذه المقدمة :-

كـأن الليـالى أقسـمت بألِيَّـة تؤكـدها أن لسـت للثغـر عائـدا

ونلحظ أنه لم يأت بالصورة الواحدة بل تتابعت صوره فجاءت بعضها وراء بعض وتتسم هذه الصور بالمعانى الجزلة الواضحة الخالية من التعقيد.

❁❁❁

ومن المعانى الجميلة التى تملك على المتلقى كل حواسه ومشاعره قوله فى مقدمة إحدى قصائده وهو يستغيث بصاحبه ويطلب من العون بعدما وقع فى شراك الحب.

يـا صـاح أيـن مضـى قلبـى فأطلبـه قَـدْ غَـابَ مُـذْغاب عـن عينـى وأَنْدُبـه

قـد كنـت أنـدب قلبـى بعـد سـاكنه فصـرتُ أنـدب أحبـابى وأندبـه

قـد كنـت حذرتـه مـن فعـل غـادرة فـذاق مـا كنـت أخشـاه وأحسـبه [1]

برع شاعرنا في أن يصور حاله مستخدماً معانى واضحة جلية بين فيها مدى حاجتنا إلى الرفقاء والأصدقاء بندائه لصاحبه الذى أعده أقرب الناس إليه يشكو له حاله، ويطلب منه البحث عن قلبه الذى غاب بغياب محبوبته ونرى المعنى واضحا جليا فى البيت الثانى، حيث عبر عن حاله بالندب وليس بالبكاء، لأن البكاء سرعان ما ينقطع، ولكن الندب يلازم الإنسان طويلاً.

وما أرق معانيه وهو يتحدث عن محبوبته إذ يقول فى مقدمة إحدى قصائده:-

يكفيـك أن غرامـى لـو أردتُ بـه زيـادة فـوق مـا ألقـاه لـم أَجِـد

إنـى ألـذُّ عـذابى فـى مسَـرتها فياصـبابة زيـدى يـا غـرام قِـد [2]

(١) ديوانه / صـ ٤٥.

(٢) ديوانه / صـ ٨٦.

المعانى واضحة جلية لا تحتاج إلى معجم لتوضيحها لتبين قصد شاعرنا فى التعبير عن حبه الذى وصل إلى غايته ونهايته فلا زيادة بعد هذه الزيادة .

ومن معانية الجلية قوله يصف قومه فى مقدمة إحدى قصائده :-

يبتونُ خمصا والمطاعم جمةٌ إذا شيبَ أدنى ذلةٍ بطعام

وما الموت إلا الذل فى العيش عندهم وما العيشُ إلا عزة بحمام

وصف شاعرنا قومه بمعانى رائعة تتجلى عن براعة فنية، فقد بيَّن عزة أنفسهم وتعففهم، وترفعهم عن الذل والمهانة حتى، ولو أدى بهم إلى بياتهم جوعاً.. وقد صرح الشاعر فى البيت الثانى بطبائعهم وبينها فى معنى جلىّ موضحا أن الذل هو الموت عندهم، وأن الحياة فى عزتهم وقوتهم.

وما أرق معانيه وهو يعاتب عينيه فائلا فى مقدمة إحدى قصائده :-

يا عينِ أَنْتِ جلبت ناظرة لفؤادىَ الأَشواقَ والشغَفَا

وتتجلى معانيه وهو يتحدث عين مشيبه الذى يبغضه ونجده ينكره إذ يقول فى بداية قصيدة له :-

لا تحسبى شيب رأسى كان من كبر لكنه فيض ما استودعت فى كبدى

ومن هنا لمحنا استخدام شاعرنا فى مقدمات قصائده معانى قريبة المأتى واضحة القصد، بعيدة عن الغموض.

اللغة والعبارة والقاموس الشعرى

اللغة هى المادة الأولية التى يقيم بها ومنها الشاعر قصيدة، لأن القصيدة بدءا وانتهاء.. هى تشكيل لغوى تتلاشى أو تتجاوب، أو تتفاعل فى بوتقة كل عناصر التجربة الشعرية [١].

وشاعرنا كانت له لغته الخاصة، وعباراته الموجبة، وقاموسه الشعرى المتفرد.

وقد استخدم شاعرنا فى قصائده، ومقطوعاته، ألفاظا سهلة بعيدة عن الصعوبة والتعقيد، موحية مؤثرة فى النفوس.. عبرت عن خواطر شاعرنا دون تكلف.

وكان شاعرنا يخضع الألفاظ التى ينتقيها لاختيار صارم، حتى يأتى بألفاظ عذبة تسيل رقة وعذوبة، حتى ولو كانت هذه الألفاظ مما احتذاه من ألفاظ الشعراء القدامى، فقد أخذ عنهم بعض الألفاظ الشائعة من مثل قوله فى مقدمة إحدى قصائده :-

فى القد والثغر والريق الشهى وطيـ يب الريح واللون والتفليج والشنب [٢]

نلحظ هذه الألفاظ القد، والثغر، والريق، والتفليج، والشنب نجدها قديمة ويقول فى مقدمة إحدى قصائده الغزلية :-

ظبى تناسب فى الملاحة شخصه فالوصف حتى يطول فيه وجيز

والبدر والشمس المنيرة دونه فى الحسن حين يُحرر التمييز [٣]

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة د. على عشرى زايد صـ ٤٢ – ط الأولى – دار مرجان ١٩٧٨.

(٢) ديوانه / صـ ٥٣.

(٣) ديوانه / صـ ١٥١.

أراد الشاعر أن يأتى بألفاظ عذبة سهلة على الرغم من شيوعها فى قصائد الشعراء وهم يتغزلون ومنها – الظبى وهو مثال للجمال الحسى عند العرب، والبدر، والشمس.

ونلحظ استخدام شاعرنا لبعض الألفاظ استخداما شائعا نجده فى أكثر من مقدمة لقصيدة له، مثل استخدامه لكلمتى " الخليج "، و " الرمل "، ولم نجد شاعرا أكثر من استخدامهما وهذا يرجع إلى نشأة شاعرنا فى خليج الإسكندرية، ومرحه ولهوه على رمالها.

إذ يقول فى مقدمة إحدى قصائده :-

ومرت على ماء الخليج بسُحرةٍ والطير فيها بالغصون وساوس(١)

ويقول فى بداية قصيدة له :-

وفاضَ خليجها والريحُ تنُشِى دروعا هن من زرَدَ صغار(٢)

ويقول فى مقدمة إحدى قصائده ذاكراً الرمل :-

فبا لرمل من شرقيه من يحبه سرائر تسرى فى أدق عظامى (٣)

وقوله فى مقدمة قصيدة أخرى :-

وهل إلى الرمل المندى نباته فأختال فى تلك الرياض وأرتع (٤)

ووفق شاعرنا فى أن يأتى بألفاظ متلاحقة فى مقدمات قصائده، قصد من خلالها شمولية الصورة الفنية إذ يقول فى مقدمة غزلية لقصيدته فى المديح :-

---

(١) ديوانه / صـ ١٥٦.
(٢) ديوانه / صـ ١٥٤.
(٣) ديوانه / صـ ٢٣٤.
(٤) ديوانه / صـ ١٣٠.

أبصرتُ ثم هويتُ ثم كتمتُ ما أَلقى ولمَ يعلم بذاك مناج

ووصلت ثم قدرتُ ثم عففتُ مع شوقٍ تناهى بى إلى الإنضاج (١)

نلحظ تلاحق الألفاظ وهى أبصرت، هويت، كتمت، وصلت، قدرت، عففت وقد رتبت هذه الألفاظ ترتيباً لفظيا ومعنويا، أدى به إلى اكتمال الصورة.

❁❁❁

وذكر شاعرنا فى مقدمات إحدى قصائده الألقاب التى كان يلقب بها بعض القواد والوزراء والخلفاء أثناء مديحه لهم، وفى هذا تذكرة للمتلقى وللسامع بصفاتهم الحسنة التى خلعها الناس عليهم.

إذ يقول فى مقدمة إحدى قصائده مادحاً الوزير المأمون أبا عبد الله ابن نور الدولة :-

تاج الخلافة وهو تاج فضائل تقضى الجواهر دونه والعَسْجَد

فخر الصنائع أىُّ فخر صبغه أبدا على طول المدى يجدد (٢)

والألقاب التى خُلعت عليه وذكرها شاعرنا هى – تاج الخلافة، وفخر الصنائع.

وتجلت ألفاظ وعبارات شاعرنا ببعض الحُلىّ من الزخارف وخاصة بما اتصل بالألفاظ المفردة، كالجناس التام ذو الرنين الواحد من مثل قوله فى مقدمة إحدى قصائده :-

لك الخُلق الجزْل الرفيع طرازه وأكثُر أخلاق الخليفة أخْلاق (٣)

فالجناس بين لفظة الخلق وأخلاق.

---

(١) ديوانه / صـ ٦٦.

(٢) ديوانه / صـ ٦٣.

(٣) ديوانه / صـ ٢١٧.

وقوله فى مقدمة إحدى قصائده :-

سقى العهد عهد الثغر بل عهد أهله حَيا كدموعى تجعل السيل ديْدنا [١]

والجناس فى لفظىّ – العهد، وعهد .

وكثر الجناس الناقص فكان يأتى باللفظين لا يختلفان إلا فى حرف واحد من مثل قوله فى مقدمة إحدى قصائده :-

له قلم يستخدم السيف والقنا وتغنى وتفنى قطرة من لعابه [٢]

وقوله فى بداية قصيدة له :-

سكرت به هوىً ونوىً وصداً فها أنا فى التذكر فى خُمار [٣]

وأكثر شاعرنا من استخدامه للأساليب الإنشائية، من أمر، ونهى واستفهام وذكرها فى مقدمات قصائده إذ يقول :-

يا بلدتى إن يغب مغناك عن نظرى فإنه فى سواد القلب لم يغب [٤]

ويقول فى بداية قصيده له :-

يا مالك الدنيا الذى الأرض والورى من العدل فى أيامه تبختر [٥]

ويقول فى بداية قصيدة له :-

وأبصر كيف تتحفه الليالى بأوقات الخلاعة والتصابى [٦]

... واستخدم شاعرنا أسلوبا حواريا شائقاً فى مقدمات بعض قصائده نهج فيه منهج عمر بن أبى ربيعة إذ قال :-

---

(١) ديوانه / صـ ٣٠٥.
(٢) ديوانه / صـ ٢٦٠.
(٣) ديوانه / صـ ١٤٦.
(٤) ديوانه / صـ ٥٤.
(٥) ديوانه / صـ ١٠٧.
(٦) ديوانه / صـ ٥٣.

وقلت للقلب لما خاف بادرة ذا مورد عز أن تعتاضه فردَ

فودعتنى وقالت وهى باكية إنى أخاف عليك الموت إن تعد

ونستبين من ذلك أن شاعرنا تميز فى لغته وعباراته وأساليبه، وأصبح له قاموسه الشعرى الخاص به.

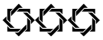

الموسيقى والإيقاع

الموسيقى الشعرية أهم عنصر من عناصر الشعر العربى، وتتمثل فى الرنين الشعرى المستفاد من الوزن والقافية الموقعة، وتتنوع الموسيقى تنوع موضوعات الشعر، وتتواءم مع التجربة الشعرية، وتتمشى مع الأفكار وتتجاوب ألوان نغامتها ونبراتها مع حالات النفس [١].

وشاعرنا باين فى اختيار موضوعاته الشعرية، وعاش معها وعمل على انتقاء ألفاظه، وأكب على تركيبها فى عبارة وفر لها الشروط التى طلبها فى الألفاظ من سهولة ورقة وعذوبة، وأضاف إليها الموسيقى المكتملة.

إذن كانت ألفاظه ذات جرس دقيق، ولكن الصوت المفرد غير الصوت المركب لأن الموسيقى تنسيق بين الأصواف المفردة فى لحن شامل منغوم ومعبر وكذا فعل شاعرنا.. التقط المفردات السهلة الرقيقة العذبة، وجاهد فى التنسيق بينها فى عبارة تعطى لحنا رقيقا عذبا لا تخطئ أذن أنغامه.

ويقول العماد الأصفهانى فى موسيقى شعر ظافر : " يدل نظمه على أن أدبه وافر وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر.. أهدى بروى شعره الروى للقلوب الصادية ريا، فياله ناظما فصيحا مفلقا جريا " [٢]

وأكثر شاعرنا من الألفاظ الممدودة بالألف والياء والواو قبل القافية مثل قوله فى مقدمة قصيدة له :-

كم قدر ما أخفى الهوى وأصوت والدمع يعرب والسقام يبين

هى مصرع الألباب تخدع ذا النهى فيروح وهو رهينها المفتون

نظر الإمام له بعين حقيقة لم ترمها بين الشكوك ظنون [١]

---

(١) مسالك الأبصار – العمرى – حـ ٩ – صـ ١٥٣.

(٢) الجريدة – حـ ٢ – صـ ٣.

(١) ديوانه – صـ ٢١٤.

وحاول شاعرنا أن يبنى بعض عباراته بناء واحدا، بحيث تعطى رنينا واحدا متكررا فترة زمنية فالتزم الجار والمجرور.. من مثل قوله :-

يا ساحل الثغر كم لى فيك من أرب ومن سرور، ومن عهد، ومن طرب (١)

وفى قوله :-

تربك ليلا على صبح، على غصن على كثيب، كموج البحر مطرد (٢)

أو إيراد لفظة مفردة بعد أخرى من مثل قوله فى بداية قصيدة له :-

ودار وإخوان وأهل وجيرة وأمن وأمر نافذ وشباب

فشاعرنا أتى بألفاظ مفرده متتابعة وهى.

دار و، إخوان، وأهل، وجيره، وأمن.

أو إيراد مبتدأ وخبر مثل قوله :-

حيث النسيم عليل، والكثيب ند والروض حال وعقد الطل منتظم

وارتفع شاعرنا بهذا العمل حتى قطع البيت إلى عبارات داخلية قصيرة، عالية الرنين تعطى إيقاعا سريعا دافقا من مثل قوله فى بداية قصيدة له :-

يعطى إذا بخلوا يدرى إذا جهلوا يأوى إذا رفضوا، يبنى إذا هدموا (٣)

ونستبين من ذلك أن شاعرنا قد بذل جهداً جريا وراء التنغيم الذى أراد أن يوفره لشعره، حتى أصدره عذبا رائقا لا تشوبه شائبه.

---

(١) ديوانه / صـ ٧٦.

(٢) ديوانه / صـ ٣٨.

(٣) ديوانه / صـ ٢٣٥.

مقدمات قصائد ظافر الحداد

(فى ميزان النقد الأدبى)

.. على الرغم من تجلى مقدمات قصائد شاعرنا وبروزها، إلا أنها قد خضعت لمقاييس نقدية رصدها الدكتور حسين نصار فى خاتمة ديوانه المحقق عن ظافر الحداد، ليطلعنا على آراء النقاد ومآخذهم فى قصائده، ومقطوعاته.

والذى يعنينا من هذه الرؤى النقدية هو ما رصد عن مقدمات القصائد فى ديوان شاعرنا.

ومما أخذ عليه تبانيه فى استعمال (لا سيما) تباينا كبيرا، إذ أتى بها على اللغة المشهورة فيها (لاسيما) بتشديد الياء، وعلى لغة غير مشهورة بتخفيف الياء ثم حذف (لا) منها إذ قال فى مقدمة إحدى قصائده :–

فى زمان الأفضل المحيى الورى   (سيما) فيه فنون الأدب (١)

ولكن النحويين لم يذكروا هذا الاستعمال، قال الأشمونى : " تشديد يائه ودخول (لا) عليه ودخول الواو على (لا) واجب.

وقال ثعلب : من استعمله على خلاف ما جاء فى قوله : " ولاسيما يوم بدارة جلجل " فهو مخطئ " (٢).

ومن هنا وجدنا شاعرنا وقد وقع فى خطأ نحوى أجمع النحاة على منعه فى بعض استعمالات (لاسيما).

وإننى أذكر أن شاعرنا لم يشذ فى استخدامه لهذه القاعدة إلا فى هذه المقدمة لأنه اتبع نفس القاعدة التى أجمع عليها النحاة فى مقدمته المدحية لقصيدته الغزلية إذ يقول :–

عزيزٌ على قلبى (ولاسيَّما) إذا   أطالت عليه العاذلات ملامى (٣)

---

(١) ديوانه / صـ ٣٤.

(٢) ديوان ظافر الحداد : تحقيق د. حسين نصار صـ ٢٧٤.

(٣) ديوانه / صـ ٢٨٤.

فقد أدخل (الواو) على (لا) وعمل على تشديد (الياء) وهو نفس ما أوجبه النحاة لهذه القاعدة.

واستخدام شاعرنا للفظة الأولى يرجع إلى شيوعها بين عامة الناس، وهذا ما كان يتبعه شاعرنا فى بعض استخداماته اللغوية ويقول الدكتور محمد كامل حسين : " إن المصريين لا يراعون قواعد الصرف والنحو مراعاة إخوانهم فى البلاد الإسلامية الأخرى لهذه القواعد " (١).

وإننى لا أتفق مع ما ذهب إليه الدكتور محمد كامل حسين لأن الشعراء المصريون لا تنقصهم المعرفة، ولا يختلفون فى لغة لدرجة عدم مراعاتهم لقواعد النحو والصرف.

وأن ما وقع فيه شاعرنا لا يعُد خطأ مقصودا وإنما هو من قبيل استخدامه لبعض الكلمات الشائعة وأن ما يدعونى إلى هذا القول هو انتقاؤه لبعض الكلمات الغريبة ووضعها فى قاموسه الشعرى من مثل قوله فى مقدمة مدحية لقصيدة غزلية :-

مللتم وادعيتم أنّ ذاك لكم (طبعا) صد قُتم فَملُّوا هجرىَ الآنا(٢)

نلحظ أن كلمة (طبعا) كلمة عامية انتقاها واستخدمها فى شعره ولم نجدها فى شعر شاعر آخر.

وقد التقى العماد الأصفهانى فى سنة ٥٥٥ هـ بالشريف أحمد بن حيدرة الحسينى الزيدى، فروى له بعض ما أنشده ظافر لنفسه ثم قال عنه:-

" وهو.. غريب النظم والنثر " (٣).

والتقى العماد أيضا فى سنة ٥٦٠ هـ بأبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الفزارى فروى له بعض شعره وأثنى عليه قائلاً : " كان من ظرفاء الشعراء

---

(١) فى أدب مصر الفاطمية – د. محمد كامل حسين – صـ ١٩٢.

(٢) ديوانه / صـ ٣٠١.

(٣) ديوانه ظافر الحداد – تحقيق د. حسين نصار – صـ ٢٨١.

وفصحاء الأدباء، انتهت به الحال إلى أن صار من شعراء مصر، وله ديوان مشهور، وبالجودة له مشهود " (١).

وفى العبارة السابقة دلالة صريحة على أخلاق شاعرنا وما عرف به من ظرف، وما عرف عن شعره من جودة.

واتصل الحافظ السلفى المتوفى سنة ٥٧٦هـ بظافر، واتصل بينهما اللقاء والمكاتبة فى الإسكندرية والقاهرة، وبعث ظافر بعض قصائده ومقطوعاته للرجل مكتوبة بخطه وقال عنه : " كان من مفلقى شعراء ديار مصر " (٢).

... وقد يتوقف متوقف فى حكم الحافظ السلفى لأنه حكم أدبى صادر عن عالم بالدين لا خبير بالأدب، ولكننا نرى من يدعم هذا الحكم فى تلك الفترة – وهو العماد – الذى قال عن ظافر :- " حداد، لو أنصف لسمى جوهريا، وكان باعتزائه إلى نظم اللالئ حريا، أهدى بروى شعره الروى للقلوب الصادية ريا فياله ناظما فصيحا مفلقا جريا " (٣).

... وقال عنه ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهره : " أنه كان فصيحاً فاضلاً بليغا، وشعره فى غاية الحسن ".

وأضاف المقريزى : إضافة عن السابقين فى رأيه عن ظافر إذ قال : " هو شاعر مجيد، مستعذب النظم، موصوف بالفهم " (٤).

... فلم يقتصر على الإشادة بألفاظ الرجل وعبارته كما فعل السابقون عليه، بل أشاد بمعانيه التى تدل على " الفهم " وأراد بذلك الذكاء الخبرة والثقافة.

... وقال العمرى عن ظافر معزوفة رائعة هى : " تدفق عذب الموارد، وتحقق أنه لم يضرب فى حديد بارد تضرم فطنة مثل لهيب موقده، وقلوب

(١)ديوانه ظافر الحداد – صـ ٢٨١.
(٢) نفسر المرجع – صـ ٢٨٢.
(٣) نفس المرجع – صـ ٢٨٢.
(٤) نفسه – تحقيق. حسين نصار – صـ ٢٨٥.

حسده، وأتى بما لا يقدر عليه صناع ولا يتأتى عليه من قاسى الحديد امتناع، وابتسم به من الثغر بوارق سيوفه التى طبعها وسوارق أيامه التى تقى طبعها " (١).

وقال الدكتور محمد كامل حسين : " يعد عهد الأفضل بن بدر الجمالى من أزهى العصور الأدبية التى شاهدتها مصر الإسلامية، على أن عصر الأفضل لم يشاهد شاعرا مثل ظافر الحداد بالرغم من كثرة الشعراء، وتفوقهم جميعا فى هذا الفن.. وبلغت به شاعريته إلى أن يضعه النقاد ومؤرخو الأدب فى مصاف أكبر شعراء عصره " (٢).

❁❁❁

ومن هنا وجدنا شاعرنا ظافر الحداد واحدا من أكبر شعراء عصره بل عدَهُ الدكتور محمد كامل حسين أعظم شاعر فى مصر الإسلامية".

❁❁❁

(١) نفس المرجع – صـ ٢٨٥.

(٢) فى أدب مصر الفاطمية – د. محمد كامل حسين – صـ ١٧٩.

(الخاتمة)

... وبعد فقد كان هذا الموضوع حول (مقدمات القصائد فى شعر ظافر الحداد) وقد توصلت من خلال دراسته إلى جملة نتائج من أهمها :-

١- أوضحت الدراسة ازدهار الحياة الثقافية ازدهاراً ملحوظاً، رغم الضعف الذى كان يعثور الأمور السياسية والاقتصادية فى القرنين الرابع والخامس، وأدى هذا الازدهار إلى شيوع الشعر وعمومه بين طوائف الشعب من أميين وغير أميين، ومن أصحاب حرف وغير أصحاب حرف وكان ظافر واحدا منهم.

٢- أثبتت الدراسة تفوق شاعرنا وإبداعه فى نظم الشعر، وأن مهنة الحدادة التى امتهنها لم تكن عائقاً لإبداعه واقتحامه مجالس الشعراء، بل كانت مهنته مجالاً خصيبا لشاعريته المتفتحة، تطوف بها، وتستخرج منها كثيرا من الصور الأخاذة التى برزت فى شعره، فأخذ اسمه فى الشيوع وشعره فى الانتشار، وشخصه فى الدخول إلى القصور.

٣- منحنا ظافر مجموعة من القصائد الطويلة، والقصيرة، وعدة مقطوعات شعرية، أفردها جميعاً لا براز ما وهبته تجاربه المختلفة من مشاعر وأفكار وتحديد مواقفه منها، وبث مجموعة كبيرة من هذه المواقف فى مواضع من قصائده الأخرى.

٤- أوضحت الدراسة أن شاعرنا " ظافر الحداد " ابن الإسكندرية، هو أول من صورها فى كثير من مقدمات قصائده، فلم يترك مجلى من مجالى الجمال، ولا مشهدا من مشاهدا الحسن، ولا أثرا من آثار الخلود، ولا خاصة من المفاخر، ولا ميزة من المزايا فى الإسكندرية إلاّ صورها فى شعره، فالصور التى رسمها لبلدته كثيرة تكاد تستغرق شعره كله، وتستحوز على القصائد الكاملة، بينما لا يعطى الفسطاط غير الأبيات القلائل.

٥- أجاد شاعرنا فى مقدمات قصائده الوصفية – وصف الطبيعة المصرية عامة والإسكندرية خاصة، فأحسن وصفها ودققه، ووفر لما رسم الشمول والجزئية، والواقع والخيال، وأشرك فيه الحواس جميعاً، فأعطانا رسوماً جزئية وتفاصيل دقيقة، ومنحنا الرسوم العامة التى تشكل اللون، والرائحة، والحركة والصوت، ولم يبعد عن الواقع فى رسمه، كما اعتمد على الخيال، وأثارت كل صورة واقعة أمامه صورة أخرى أو أكثر فى مخيلته استوحاها من إيحاء الصور الواقعة فى أكثر الأحيان، ومن ألوانها كثيرا، ومن أصواتها أحيانا، فجاء كثير من صوره انطباعا يعطى التأثير الانفعالى أكثر مما يعطى شكلا معينا.

٦- استقى ظافر فى مقدمات قصائده المدحية كثيرا من التراث الشعرى من صفات الجود والشجاعة، وكثيرا من الصفات العامة، كما استقى من الواقع الجارى فأخذ منه صفات العدل، والهيبة تلك الصفات التى تحلى بها كثيرا من الخلفاء، والوزراء، والقواد، وكان المجتمع المصرى ينعم بها فعلا.

وأجَرىَ شاعرنا فيها نوعاً من التغيير، وكان أدنى ما فعله أن خاط لهذه الصور رداء أو أردية اختارها من لفظه، ونسجها بنفسه، فأخرجها حاملة خصائصه وإبداعه، فبدت قصيدة المدح عند ظافر وليدة قريحة الشاعر المصرى، والمجتمع المصرى.

٧- أثبتت الدراسة ارتباط المقدمات الغزلية عند ظافر بالمديح، فصارت مقدمة طبيعية له، كما كانت مقدمة طبيعية عند العرب، فقد أدرك العرب قديماً أن أجود الشعر ما كان غزلاً مقدماً بين يدى مديح، وقفاهم شاعرنا فى عدة مواقف منها موقفه الذى اتخذه من الحبيبة، وموقفه فى وصفه للحبيبة غير أنه فى تصويره لها، غلب عليه نهجه الخاص فى التصوير الذى يكاد يلتزم إيراد الصورة التى يرسمها مقرونة بصورة أخرى أو أكثر تشبيهاً شكلا أو لونا أو إيحاء، فطبع ذلك النهج هذه الصور بطابعه الشخصى، ورأينا ذلك الطابع

يتجلى فى مقدمات القصائد التى خالط فيها بين الإسكندرية والطبيعة والحبيب فجعلها شيئاً واحدا، لا يستطيع أن يفصل بينها.

٨- نجح شاعرنا فى تحطيم حصار الرقابة المحكم حوله، فعمد فى بعض شعره إلى شئ من التلوين فى مقدماته الغزلية، فاعتمد على السرد القصصى فى التعبير عن بعض وقائعه التى احتذى فيها نهج عمر ابن أبى ربيعة عن فكشف عن بعض المقدرة والبراعة والظرف وأدخل حوارا قصيرا فى بعض مقدمات قصائده الغزلية.

٩- بينت مقدمات قصائد شاعرنا أن ظافراً كان مختارا لألفاظه، وعباراته، وجملة، وجامعاً لمعانيه وصوره، ومولدا ومستلهما، وموفرا لما ينظم من الموسيقى العذبة، وقد شارك شعراء عصره فى الميل إلى الصنعة، فوفر قدار من الجناس والطباق لشعره، ولكنه استطاع أن يحذق صناعته فيخفى صنيعه، فلا تقطن إليها الأذهان إلا بعد أن يشيع فى النفوس وقعها اللذيذ، ومن هنا وجدنا شعره طبيعى غير متكلف.. فالحق أنه شعر (تكَلَفَ) له صاحبه جهدا مضاعفا حتى أخرجه (غير متكلِف).

١٠- أوضحت الدراسة عناية شاعرنا بالكساء اللفظى لبعض الصور التقليدية المستوحاه من الشعر القديم، فخرجت على قدر من الحلاوة، والعذوبة وباعد بينها وبين نظيرها من الصور بعض البعد، حتى يحس المستمع، أو المتلقى للوهلة الأولى أنها صورا جديدة، وقد وصل الشاعر فى بعض الأحيان إلى إيجاد صورا مبتكرة.

١١- أوضحت الدراسة أن ظافر الحداد استعمل بعض الصيغ غير المشهورة فلا يعيب ظافر كثيرا أن يستخدم صيغا لم تستخدم قبله إذا جرت على القواعد العربية السليمة، وخاصة أن شاعرنا لم يعش فى عصر الاستشهاد اللغوى، وما زالت المعاجم عندنا لا تحوى كل ما استخدمه الفصحاء من صيغ.

١٢- أثبتت الدراسة أن ظافرا ابن عصره.. مَثَّلَ عصره أحسن تمثيل فى مدحه، ووصفه، وغزله، وشكايته، فلا عجب أن سما به من سما إلى المكانة التى أَهَلَهُ لها شعره، وكما قال عند الحافظ السلفى المتوفى سنة ٥٧٦ هـ. أنه كان من مفلقى شعراء مصر.

ثبت المصادر والمراجع

١- الأدب فى العصر الفاطمى الكتاب والكتابة – د / محمد زغلول منشأة المعارف بالإسكندرية.
٢- أحسن التقاسيم – المقدسى – الطبعة الثانية – ١٩٠٦.
٣- أصور النقد الأدبى – أحمد الشايب – ط الثانية – مطبعة النهضة المصرية ١٩٧٣م .
٤- الأصول الفنية للأدب – عبد الحميد حسن – ط. دار الفكر العربى.
٥- الخطط للمقريزى تحقيق د. مصطفى غالب – ط الثانية –١٩٠٦.
٦- الخيال الشعرى – د. طه مصطفى أبو كريشه – ط دار التوفيقية بالأزهر ١٩٧٨.
٧- العلم والشعر – رتشاردز – ترجمة د. مصطفى بدوى – ط بدون.
٨- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور – د شوقى ضيف –الطبعة الثانية دار المعارف.
٩- الشعر المصرى من الفتح الإسلامى إلى مطلع العصر الحديث د. محمد أحمد سلامة – الطبعة الأولى ١٩٨٠.
١٠- الكامل فى التاريخ – لابن الأثير – الطبعة الأولى١٣٠١ هـ.
١١- بين الأدب والنقد – د. محمد عبد المنعم خفاجى – ط . مصر.
١٢- تاريخ الدولة الفاطمية – د. محمد جمال الدين سرور – ط. مصر.
١٣- تاريخ الدولة الفاطمية – حسن إبراهيم حسن – مطبعة مصر ١٩٥٨.
١٤- تاريخ الأدب العربى من مطلع القرن الخامس إلى الفتح العثمانى – عمر فروخ – دار العلم للملايين.
١٥- تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى – د. سيد عبد العزيز – ط. الأولى. دار المعارف ١٩٦١.
١٦- تاريخ وأثار مصر الإسلامية – د. عبد الحميد يونس وآخرون. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٧- رحلة ابن جبير – ابن جبير – ط. دار مصر للطباعة.

١٨- عن بناء القصيدة العربية الحديثة – د. على عشرى زايد ط. دار مرجان الأولى الأولى ١٩٧٨.
١٩- مسالك الإبصار – العمرى – ط. دار الكتب المصرية.
٢٠- مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى – محمد عبد الغنى حس.ط. مصر.
٢١- مع الشعراء أصحاب الحرف – عبد العليم القبانى – ط. دار الكتاب العربى ١٩٦٧.
٢٢- معجم الأدباء – ياقوت الحموى – ط. الطبعة الثالثة. دار الفكر العربى.
٢٣- مطالعات فى الشعر المملوكى والعثمانى – د. بكرى شيخ أمين ط – دار العلم للملايين.
٢٤- فى أدب مصر الفاطمية – د. محمد كامل حسين – ط. دار الفكر العربى ١٩٧١م .
٢٥- فى النقد الأدبى – د. شوقى ضيف – الطبعة الخامسة – دار المعارف.
٢٦- ديوان ظافر الحداد – تحقيق – د. حسين نصار – ط. الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥.

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة
تقديم :	٤٠٩
نسبه وموله	٤١١
نشأته وحياته	٤١١
ثقافته وتعليمه	٤١٤
عصره	٤١٥
صلته بمعاصريه	420
وفاته	٤٢٧
شعره	٤٢٧
مقدمات القصائد فى شعر ظافر الحداد "دراسة موضوعية"	٤٣٥
مقدمات القصائد فى شعر ظافر الحداد "دراسة فنية "	٤٧٦
العاطفة	٤٨٠
الخيال الفنى	٤٨٧
الأفكار والمعانى	٥٠٠
اللغة والعبارة والقاموس الشعري	٤٠٥
الموسيقى والإيقاع	٥٠٩
مقدمات قصائد ظافر الحداد " فى ميزان النقد الأدبي "	٥١١
الخاتمة.	٥١٥
المصادر والمراجع.	٥١٩
فهرس المحتويات	٥٢١